سلسلة الموسوع في الأدب العربي

٧

أدب الرّحلة

تاريخه وأعلامه

المسعودي - ابن بطوطه - الرّيحاني

جورج غريّب
استاذ الأدب العربي في المعهد الأنطوني

نشر وتوزيع
دار الثقافة
بيروت - لبنان

التـأريخ

***

التأريخ علم يعنى بالمجتمع البشري من حيث تطوره عـبر العصور . ومزية المؤرخ الأولى تحرّي الحقيقة على ضوء دراسة الوقائع والأحداث واستجلاء أسبابها ، فتتضح على يديه سيرة الشعوب في رقيها او تأخرها .

والتأريخ مظهر من مظاهر التحضر ،فهو مع البدائيين أساطير وقصص وعجائب ومع ارتقاء العقول علم تشده الحقيقة .

إن الانسان في أحقابه الأولى ، انصرف الى ضروريات الحياة — وذلك بطبيعة النشوء البشري — فلا هو عرف الكتـابة ، ليفكـّر في تدوين تاريخه ، ولا استدعت سذاجة أحواله تدوين ذلك التاريخ. على انه حفظ ما ألمّ به من طوارق الايام ، لفداحة أثرها في تكييف معيشته ، كالطوفان والحرب والقحط ونحو ذلك ، فروى حـوادث تلك الطوارق ، وتناقلتها من بعـده الأعقاب ، بشكل اخذ يتعاظم على كرور الايام ، ويتكيّف باضافة كل مستغرب اليه . فاذا بأخبار الأوائل تصل الى عهـد نشوء التاريخ ، وهي أقرب الى الخرافات والأساطير ، منها الى

حقائق الواقع ومنطوق المحتمل ، وعليها – باختلاف الأمم والعصور – صباغٌ من الدين، وأصباغ من الحماسة، او من الشعر او من الخيال . وهكذا رأينا الميتولوجيا اليونانية في الالياذة ، واخبار الهنود والفرس في المهابهاراته والشاهنامة ، وما تناقل العرب من أخبار القبائل البائدة، كأخبار عاد وثمود وطسم وجديس وسيل العرم وبلقيس التي ، وان طغا عليها القصص المستغرب ، فانها لا تخلو من حقيقة تاريخية ، ضخمت بكرور الأجيال .

أمّا ما هو أقرب الى التاريخ ، فأيام العرب وحروبهم قبل الاسلام ، فإنها تدخل في صلب المهاجرات والحروب القديمة ، ومع هذا لا نريد القول انه كان للعرب في الجاهلية ، تاريخ بالمعنى الحديث للكلمة، انما كانوا يتناقلون أخباراً لحوادث وقعت ، إما في بلادهم ، وإما في بلاد من عاشرهم من الأمم . فمن أخبارهم : حروب القبائل مثلاً ، التي وصلت الينا باسم « أيام العرب » ، و « قصة سد مأرب ، واستيلاء ابي كـُرُبٍ على اليمن ، وفتح الحبشة لليمن، وقصة أصحاب الفيل، وقدومهم الكعبة، وحرب ذي يزن الحِمْيَري ، الى نهاية امر الفُرس في اليمن ، وقصة عمرو ابن لحيّ وأصنام العرب ، وأخبار جُرْهُم ، ودفن زمزم ، وتاريخ الكعبة ، الى ايام قصيّ بن كِلاب ، وولاية الحج ، وأمر عامر بن الظرب ... وحفر بئر زمزم ، وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة ، » وغير ذلك من الأخبار التي تناقلها العرب عند ظهور الاسلام، وغير اخبار عاد وثمود وامثالها من العرب البائدة، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة ...

الأنساب

أما حديث الأنساب، فقد كان له عند العرب عامة والجاهليين والأمويين خاصة ، ما عند الأمم القديمة ، من شأن كبير وذلك بسبب الشعور القبلي السائد فيهم فقد عنوا بحفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء ، او للتفاخر بالآباء . وقد يكون اليونان أشد الأمم مبالغة في ذلك ، حتى أنهم نسبوا أنفسهم الى آلهتهم ، وافتخروا بذلك . وهكذا كان الرومان ، فبطارقتهم يدّعون الانتساب الى آباءٍ يفوقون البشر في الطبقة ، ومن هذا القبيل ، افتخار اليهود على سائر الأمم بانتسابهم الى الآباء الأولين والأنبياء . وهم كالأمم السامية ، يميلون الى التوحيد ، بعكس اليونان والرومان .

نسب العرب

ومن جهة العرب ، الذين هم فرعٌ من العبران ، فقد رُتّبت أنسابهم في ست طبقات كما جاء في الماوردي :

١ – الشعب : وهو النسب الأبعد (عدنان ، قحطان)

٢ – القبيلة : وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب (ربيعة ومُضَر)

٣ – العمارة : وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل (قريش كنانة)

٤ – البطن : وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة (بنو عبد مناف ، بنو مخزوم)

٥ – الفخذ : وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن (بنو هاشم بنو أمية)

٦ – الفصيلة : (بنو أبي طالب وبنو العباس)

وجاء لابن خلّكان ، ان العرب بالغوا في الرجوع الى الأجداد ، الى حد انهم كثيراً ما رجعوا بأسماء المدن ، الى أسماء بعض اجدادهم ، فاذا سئل احدهم مثلاً عن باني الاندلس قال : «بناها أندلس بن يافث بن نوح» منتهياً بذلك بأحد آباء التوراة .

ومن بين النسابين من حفِظَ اسماء القبائل ، وما يتفرع منها بشكل عجيب .

وقلما خلت قبيلة في الجاهلية وأول عهد الاسلام من نسّابة او اكثر . نذكر من مشاهيرهم : ابو بكر الصديق ودَغْفَل السدوسي الشيباني ،وعميرة ابو ضمضم ، وزيد بن الكيّس النمري ، وصعصعة بن صوحان ،وسعيد بن المسيّب وغيرهم ممن ترد اسماؤهم في بلوغ الأرب .وقد حافظ الاسلام على النسب .«ولما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين ، صار النـاس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم » .

جاء الاسلام اذن ، وليس للعرب من قبيل التاريخ ، غير ما اشرنا اليه : أنسابٌ ، وأخبار متقطعة ،وخرافات ، لا يعرفون

من احوال الامم الاخرى إلا ما يمتُّ اليهم بصلة . اضف الى ذلك ، ما سمعوه من حوادث التوراة والتلمود ، بواسطة اخبار اليهود او قسس النصارى ، على ان كل ذلك ، لا يؤلف وحدة إخبارية متماسكة الحلقات ، بل شذرات في الاخبار متقطعة .

لذلك كان العرب قبل الاسلام ، من اضعف الأمم المتمدّنة في التاريخ ، فلما ظهر الاسلام بينهم ، شغلتهم الفتوحات والحروب ، حتى اذا استتب لهم الامر ، وفرغوا من الفتح ، دعوا الى وضع التاريخ ، بعد ان تدرّجوا في سائر العلوم الاسلامية ، التي جمعت علوم القرآن ، والحديث ، واللغة ، والتاريخ ، .وهي علومٌ اقتضاها الاسلام ، كما جمعت « الآداب الجاهلية او العربية » الشعر والخطابة ، وهما من العلوم التي كانت في الجاهلية ،وارتقت في الاسلام ، «والعلوم الدخيلة او الاجنبية» الطب ، والهندسة ، والفلسفة ، والفلك ، وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، وكلها علوم نقلت الى العربية من اللغات الأخرى .

اشتغل العرب في اول دولتهم ،بالرئاسة والسياسة، فانصرفوا الى نشر دينهم ، وانشاء دولتهم ، ضمن نطاق لا يحتاج الى علم ، وذلك لاسباب عديدة ، لا مجال لذكرها هنا ... فتولّد فيهم ، بتوالي الاجيال ، نفور من انتحال العلم ، لانه صار بفضل غير العرب ، من جملة الصنائع ؛ واهل الرئاسة يأنفون من المهن ، وكانوا يعيبون على العربي الاشتغال في اللغة او التعليم ، ويعتبرون ذلك من صناعات الموالي . على انهم كانوا يقولون – كما يروي

البيان والتبيين – « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم إلا علم الاخبار » .

لذلك رأينا حملة العلم في الاسلام ، اكثرهم من العجم ، لتنزه العرب عن الاشتغال به ، إلا الاخبار ، فانهم اعتنوا بحفظها وتناقلها، وبأخبار الفرسان والخطباء والشعراء خاصة، يقصدون بها استنهاض الهمم ، وترويض النفوس وإثارة الحمية . ولعل البكري النصراني كان اشهر النسّابين في العهد الأموي .

يروي المسعودي ان معاوية – ادهى خلفاء الاسلام واكثرهم رغبة في استماع الاخبار – كان يجلس لاصحاب الاخبار ، في كل ليلة بعد العشاء ، الى ثلث الليل ، فيقصّون عليه اخبار العرب وايامهم ، والعجم وملوكها ، وسياستها في رعيتها ، وسائر ملوك الامم ، وحروبها ومكايدها. ثم ينام ثلث الليل، ويقوم ، فيأتيه غلمان مرتّبون ، وعندهم كتب قد وُكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب». واغلب الظن ، ان هذه الكتب لم تكن عربية ، لانها سبقت عهد التدوين ، فكانت مهمة الغلمان إذن ترجمتها .

وامثال معاوية من كبار القواد كثيرون ، ومنهم من اذا وقع في مأزق سياسي ، رأى للخروج منه ، الرجوع الى شبيهه ، في ماضي الازمان ، ليختطّ له طريق السابقين من الحكماء .

يروي الجاحظ «ان المنصور، لما همّ بقتل ابي مسلم الخراساني»، تردد في ذلك، نظراً لما كان له من شأن ، في قيام الدولة العباسية .

فلما عظم تردده ، وتزايد بلباله ، استدعى اسحق بن مسلم العقيلي ، وقال له : « حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه في حرّان » ، فقص عليه قصة سابور ، ملك الفرس الذي أنفذ وزيره الى خراسان ، يدعو اهلها الى طاعته ، فاشتغل لمصلحته لا لمصلحة مليكه . فلما قوي أمره ، عزم سابور على قتله عند رجوعه اليه ، بأعيان خراسان . فلما رجعوا بغتهم ، فلم ينتبهوا إلا ورأس الوزير بين أيديهم ، فاضطروا الى طاعة سابور . فلما رأى المنصور ما بين قصة ابي مسلم ، وقصة ذلك الوزير من تقارب ، أوعز بقتل الخراساني الشهير .

وجاء في العقد الفريد، ان بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، كان، اذا دخل شهر رمضان، أُحضرت له كتب التواريخ والسير، وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم ، فأصبح علم التاريخ ، من علوم الملوك ، واصحاب السيادة، حتى قيل : علم الملوك ، النسب والخبر ، وعلم اصحاب الحروب ، درس كتب الايام والسير .

من هنا ندرك لماذا – عندما دبّ الضعف في جسم الدولة العباسية ، واستبدّ الوزراء بامورها – منع المستبدون الخلفاء ، من مطالعة كتب التواريخ والسير ، مخافة أن يفطنوا لامور ، تثير فيهم كوامن الوعي والنشاط .

يحدّثنا العقد الفريد ، أن المكتفى ، سأل وزيره بعض كتبٍ يلهو بها ، فطلب الوزير من النواب تحصيل ذلك ، وعرضه عليه ، قبل تسليمه للخليفة . ففعلوا ، واذا بالوزير يغضب

لرؤيته ، في تلك الكتب ، بعض وقائع الايام السالفة ، ويقول لنوابه « والله ، انكم اشدُّ الناس عداوةً لي، أنا قلت لكم حصّلوا له كتباً يلهو بها ، ويشتغل بها عني وعن غيري ، فقد حصلتم له مـا يعرفه مصارعَ الوزراء ، ويوجـد له الطريق الى استخراج الاموال ويعّرفه خراب البلاد من عمارتها ... ردّوها ، وحصلوا له كتباً فيها حكاياتٌ تلهيه ، واشعـارٌ تطربه » ففعلوا .

ولما ظهرت الشعوبية على حقيقتها في الدولة العباسية اضطر العرب للرد على مثالبها الى تدوين الانساب والتأليف فيها، فكان ذلك الى جانب السير والمغازي فرعاً من فروع التاريخ .

من اشهر النسابين في العصر العباسي الاول محمد بن السـائب الكلبي وابنه هشام صاحب كتـاب الفريد . وقد عـاش الوالد عهداً طويلاً في العصر الاموي . واشتهر آخرون امثـال أبو اليقظان النسّاب ، وأبو عبيدة وعلاّن الشعوبي صاحبـا كتاب المثالب .

مصادر التاريخ الاسلامي

إحتـاج المسلـمون عنـد اشتغالهم بجمع القرآن والأحاديث ، الى مـا يساعدهم في تفسيرذلك ، فلم يكن بد من جمع السيرة النبوية ، لأن فيهـا تحقيقاً للأماكن والاحوال ، التي قيلت بها الأيات والأحاديث .

وقد اختلف في حقيقة المدوّن الاول لهـذه السيرة ، فمنهم

من جعله محمد بن اسحق المتوفي عام ١٥١ ، ومنهم من جعله محمد بن مسلم الزهري ، المتوفي عام ١٢٤ ، لا بل قيل ، إن اولَ من صنف المغـازي والسِـير عُروة بن الزبير ، المتوفي عـام ٩٣ ، ووهبُ بن منبه ، المتوفي عام ١١٤ . ولا شك أن ضيـاع هذه السِير ، أوجد هذه الشكوك في حقيقة المصنفين . امـا أقدم ما وصلنا من السير ، فسيرة عبد الملك بن هشام ، المتوفي عـام ٢١٢ ، وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور .

واحتاج المسلمون الى تدوين اخبار الفتح ، فألفوا الكتب في ذلك ، كفتوح الشامِ للواقدي ، المتوفي عام ٢٠٧ ، وفتوح مصر والمغرب ، لابن عبد الحكم ، المتوفي ٢٥٧ ، وفتوح بيت المقدس، ونحو ذلك . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً ، في كتابٍ واحدٍ كفتوح البلدان ، او فتح الامصار للبلاذري ، المتوفي عام ٢٧٩ ، وهو أوثقُ واشملُ وأقدمُ كتب الفتح ، اذا استثنينا كتاب الواقدي المشهور ، الذي تشوبه المبالغات .

وظهر في العصر العباسي الاول نوع من التاريخهو تاريخ الأمم من فرس وروم ونحوهما ، وتاريخ الأديان من يهودية ونصرانية . ثم هناك تاريخ تراجم الرجال وقد عني به المسلمون عناية كبيرة . وقلّد الأدباء المحدّثين في ذلك فظهرت على أيديهم تراجم الشعراء وما اليها، وهناك الاخباريون، وكتبهم أقل دلالة على التاريخ من سواها . ولعل أشهرهم الهيثم بن عدي .

الطبقات والمغازي

يحدثنا الشهرستاني ، ان العلماء، لتحقيق مسائل علوم القرآن والحديث والنحو والأدب ، اضطروا الى البحث في أسانيدها ، والتفريق بين غثّها وسمينها ، فقادهم ذلك الى النظر في رواة تلك الأسانيد وتراجمهم، فقسموهم الى طبقات بالنظر الى الفنون، فاذا هناك طبقات الشعراء ، والأدباء ، والنحاة ، والفقهاء ، وطبقات الفرسان ، والمحدثين ، واللغويين ، والمفسّرين ، والحفّاظ ، والمتكلمين ، والنسّابين ، والأطباء ، والندماء ، والمغنّين ، وغيرهم ، واذا بالمسلمين ، من اكثر الأمم كتباً في تراجم الرجال .

ويعلمنا ابن خلّكان أن أقدم كتب الطبقات، كتاب طبقات الصحابة ، لمحمد بن سعيد ، المعروف بكتاب الواقدي ، المتوفي عام ٢٣٠ . ثم طبقات الشعراء ، لابن قتيبة ، المتوفي عام ٢٧٦ . وهناك طبقات كثيرة ، في أزمنة مختلفة ، نذكر بعض ما استخرج منها ، كوَفيات الأعيان ، وفوات الوفيّات ، غير التراجم الدخيلة في تواريخ البلاد، كتاريخ دمشق، لابن عساكر، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وكلاهما في نحو ثمانين مجلداً .

وكان طلاب الأدب ، يقصدون البادية ، للأخذ عن الأعراب شفاهاً ، فيقفون على أخبارهم ووقائعهم ، ويدونونها في كتب الأدب .

ولما استبدّ بنو أمية في خلائفهم، تذكر الناس عدل الراشدين،

فتحدثوا بأعمالهم ، لا بل ألّف بعضهم كتباً في تاريخهم ، وفي تاريخ الخلفاء على الاجمال . من أقدم تلك المؤلفات ، كتاب الدينوري المتوفي عام ٢٨١ ، ومن هذا القبيل أيضاً تآليف تراجم الوزراء ، وعمّال الشرطة ، والأذكياء ، والبخلاء ، والعشّاق ، وسواهم .

وكان تاريخ النبي داخلاً في صلب الحديث ، فلما رتّبت الأحاديث استقلت السيرة في أبواب أشهرها المغازي والسير (باعتبار المغزى هنا مرادفاً للسيرة) . ولكن ظل المحدثون يدخلون السير ضمن أبوابهم كما في البخاري ومسند احمد وسواهما.

وللتأليف في السير او المغازي تسلسل تظهر فيه طبقات المؤرخين . ويمكن جعل هذه الطبقات كما يلي :

الطبقة الأولى : وتضم أربعة مؤرخين هم أول من عرف بالتأليف في المغازي :

١ — أبان بن عثمان بن عفان (مدني) توفي سنة ١٠٥ ه . وكان معروفاً بالحديث والفقه . وُلي على المدينة مدة سبع سنين من قبل عبد الملك بن مروان. على ان سيرته لم تتجاوز الاحاديث عن حياة الرسول .

٢ — عروة بن الزبير بن العوام (مدني) ولد سنة ٢٣ ه وتوفي سنة ٩٢ ه . هو شقيق عبدالله ومصعب بن الزبير . وأمه أسماء بنت أبي بكر. أخذ الحديث عن الصحابة وعن أنسبائه، وكان ثقة

في الرواية يدوّن علمه . ولكن كتبه أحرقت . رحل الى مصر وبقي فيها سبع سنين . وكان عبد الملك يجله كثيراً ، ورأى فيه الكثيرون أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى اليهم العلم في المدينة . ولا شك ان له الفضل الكبير على كتب السيرة الأولى الباقية كابن هشام وابن سعد والطبري .

٣ – شُرَحبيل بن سعد (مدني) توفي سنة ١٢٣ هـ . بعد ان عمّر اكثر من مائة سنة وهو مولى الأنصار . ورغم بعض أحاديثه التي لا يعتد بها فهو من أشهر العارفين بتاريخ الغزوات . ولا عجب ان تكون المدينة أصدق منهل للمغازي وأمام أعين أهلها توالت الأحداث .

٤ – وهب بن مُنَبّه (يمني) توفي سنة ١١٠ هـ . وهو من أبرز جامعي المغازي .

الطبقة الثانية : التي عنيت بالسير والمغازي تضم قسماً كبيراً من المؤرخين أشهرهم :

١ – عبدالله بن أبي بكر بن حزم (مدني) توفي سنة ١٣٥هـ وكان جده من كبار الصحابة الأتقياء اعتمد عليه الرسول بأكثر من مهمة . كما كان أبوه من كبار قضاة المدينة . أما أثر عبدالله في كتب السير والمغازي فكبير .

٢ – عاصم بن عمر بن قتادة الظفري (مدني) توفي سنة ١٢٠هـ وكان راوية للعلم .

٣ – ابن شهاب الزهري (مكي) توفي سنة ١٢٤ هـ من أسبق المؤرخين الى تدوين العلم وجمع الحديث . وقد حفظت مجموعة من كتبه .

الطبقة الثالثة : عاشت في العصر العباسي . أشهر أعلامها :

١ – موسى بن عقبة (مدني) توفي سنة ١٤١ هـ . اشتهر هو وأخواه ابراهيم ومحمد بالفقه والحديث ، ولكنه عرف دونهما بالمغازي . وهو مولى للزبيريين .

٢ – معمر بن راشد (بصري) توفي سنة ١٥٠ هـ ؟ كان واسع العلم بالحديث والسير . وهو مولى للأزد .

٣ – محمد بن اسحق بن يسار (مدني) توفي سنة ١٥٢هـ؟ وهو اكبر مؤرخي العصر العباسي الأول ومرجع المؤرخين بعده . وكان من الموالي أيضاً . ولعل كتابه المغازي هو اول كتاب وصل الينا في السيرة من بين المؤرخين الأول ، فيه التبويب والتسلسل .

٤ – الواقدي (مدني) توفي سنة ٢٠٧ هـ ؟ لعلّه يلي ابن اسحق في سعة العلم وكتابة المغازي والسير والتاريخ . وهو مولى مثله . وكان كثير التأليف ، من كتبه « التاريخ الكبير » الذي اقتبس منه الطبري كثيراً ، و « الطبقات » .

٥ – محمد بن سعد (بصري) توفي سنة ٢٣٠ هـ . وهو من تلاميذ الواقدي وقد دوّن له كتبه. من مؤلفاته «الطبقات الكبير» في ثمانية أجزاء . وكان من الموالي .

التواريخ العامة

نرى ممـــا تقدم ، ان كتب التاريخ عنــد المسلمين ، بعــد انقضاء القرن الثاني للهجرة ، ونصف الثالث ، لم تكن سوى الطبقات والمغازي والسير والفتوح، اما التواريخ بمعناها الشامل، فلم يعرفوها إلا بعد ذلك ، إذ نستطيع ترتيب كَتَبَة التاريخ العام ، بالشكل التالي :

١ – ابن واضح المعروف باليعقوبي وقد جاء في كتابه ، ذكر التاريخ القديم ، كاليهود ، والهنود، واليونان ، والروم، والفرس وغيرهم ، وذكر تاريخ الاسلام من بدئه الى ايام المعتمد العباسي ، الذي تولى الخلافة عام ٢٥٦ هـ .

٢ – ابن جرير الطبري المفسّر الشهير ، المتوفي عام ٣١٠ هـ وينتهي تاريخه الضخم، المرتّب على السنين،الى حوادث عام٣٠٢ وللفرغاني ذيل له ينتهي عام ٣١٢ .

٣ – المسعودي، المتوفي عام ٣٤٦هـ صاحب الكتاب المشهور « مروج الذهب » . وفي المروج ، الى جانب التاريخ ، وصف البلاد ، والبحار ، والحيوانات ، وغير ذلك (كما سنرى) .

وقد ذكر المسعودي في مروجه ، كتاباً له سمّاه : « اخبار الزمان » ، وفُهِم من كلامه عليه ، انه من المطوّلات الكبيرة ، ولكن ذهبت به أيدي الضياع .

٤ – حمزة الأصفهاني : صاحب تاريخ سني ملوك الأرض وقد فرغ من كتابه هذا عام ٣٥٠ هـ .

انقضت الدولة الاسلامية العربية ، فلا لواء بني العباس في سماء العراق ، ولا علَم الفـاطميين في أجـواء مصر ، ولا راية الأمويين في أرجاء الأندلس ، والناس ، الى ذلك الزمان ، أي الى القرن السابع الهجري ، لا يعرفون من التواريخ ، إلا كتب اليعقوبي ، والطبري ، والمسعودي ، والأصفهاني ، وقليلاً غيرها، حتى اذا قامت دول الأتراك ، والأكراد ، والبربر ، عمد الناس ، في عصرهم الجـديد ، الى تدوين عصرهم المنقضي ، فأكبوا على مطولات من ذكرنا ، يعنون في تبويبها ، وجمع مواضيعها ، وسد النقص فيها ، لا بل ألفوا عدّة مطولات ، أشهرها الكامل لابن الأثير ، المتوفي عام ٦٣٠ هـ . فقد ضمّنه تاريخ الطبري كله ، بعد حذف وزيادة ، فاذا هو ١٢ مجلداً ، وهناك ابو الفداء ، ملخص الكامل ، وعمر بن الوردي ، مختصر تاريخ ابي الفداء . وكانت وفاة الوردي عام ٧٤٩ هـ .

وما كادت دولة العرب تمعن في الذهاب ، وتتوارى أخيلة أعلامها وألويتها وراء عبرة التاريخ القاسية ، حتى أطل وجـه العلامة الجبار ، ابن خلدون ، وأطل معه وجه تاريخه الأشهر ، الذي امتاز بتلك المقدمة الفلسفية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً .

ومن المؤرخين ، من أعطوا مؤلفاتهم أسماء المدن التي وصفوها كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، المتوفي عام ٤٦٣ ، وتاريخ

دمشق لابن عساكر المتوفي عام ٥٧١ ، وخطط مصر للكِنْدي وللقضاعي ، وللمقريزي ، ومثل ذلك ، أخبار مصر القاهرة ، لأبي المحاسن والسيوطي .

التراجم والمعجمات : (التراجم)

كانت التراجم في أول عهدها ، تدوّن في تلك الطبقات ، وكان هذا التدوين ، خاضعاً للمهن او للعلم الذي يجمع كل طبقة ، كما مرّ معنا .

فلما غابت القرون الأولى ، وأخذ العلم في النضج ، والعلماء في الترتيب ، أصبح الجو ملائماً لنبوغ المؤرخين ، فاستخرج جماعة منهم ، من الطبقات وسواها ، كتب التراجم . نذكر منها ، ما هو مرتّب على حروف المعجم :

١ — وفيات الأعيان « لابن خلكان » المتوفي عام ٦٨١ هـ .

٢ — فوات الوفيات «لصلاح الدين الكتبي» المتوفي عام ٧٦٤ وهو مكمّل لابن خلكان .

٣ — الوافي في الوفيات « لصلاح الدين الصفدي » المتوفي سنة ٧٦٤ وهو متفرق الى اليوم في الكتب .

٤ — مرآة الزمان « لسبط بن الجوزي » المتوفي عام ٦٥٤ في اربعين مجلداً وشأنه شأن « الوافي » .

٥ — الصلة « لابن بشكوال » المتوفي عام ٥٧٨ .

٦ — المعجم « لابن الابار » والكتابان الاخيران من أشهر كتب الاندلس .

المعجمات : ومن المعجمات التاريخية :

١ — أسد الغابة « لابن الأثير » جمع فيه أخبار الصحابة في خمسة أجزاء .

٢ — تراجم الحكماء « لابن القفطي » . ومن هذه المعجمات ما هو خاص بفئة من الناس، ومنها ما هو مختص بطبقة من طبقاتهم.

واذا اردنا إلقاء نظرة شاملة على التراجم والاخبار التاريخية، رأينا معظمها منتشراً في كتب الادب ، من أشهرها الأغاني ، العقد الفريد ، الكشكول ، المستطرف ، البيان والتبيين .

ولعل كثرة التراجم — ومعظمها بشكل القواميس — هي التي ميزت العرب عن سواهم من الأمم المتحضرة ، لأنهم كانوا السبّاقين الى هذا الاتجاه الذي هو نواة تأليف المعجمات التاريخية عند اهل العلم . وستظل قواميس التراجم كنوزاً في تربة التاريخ والجغرافية والعلم والادب .

لنذكر « وفيات الأعيان » مثلاً فهو معجم يحتوي على اكثر من ٨٢٠ ترجمة ، مرتبة على أحرف الهجاء ، وبشكل نادر من الضبط والتبويب . وفي فوات الوفيات اكثر من ٤٥٠ ترجمة اهملها ابن خلّكان .

وهناك طبقات الشعراء والفقهاء والاطباء من التراجم التي لا

تخضع لترتيب احرف الهجاء ، بل لسَير العصور ، جمع فيه ابن
أبي أُصيبعة المتوفي عام ٦٦٨ تاريخ الطب والعلم والفلسفة وتاريخ
الاطباء والعلماء والفلاسفة عند الأمم .

ولا يخفى ما يسير في ركاب تلك المؤلفات من الفوائد العامة،
التي تؤلف ابواباً خاصة بها .

عدد كتب التاريخ

نستطيع القول ، بعد هذا كله ، انه لو بقيت للعرب جميع
تواريخهم ، لأربت على الآلاف ، كيف لا ، ومجلدات التاريخ
الواحد،قد تبلغ احياناً الثمانين.فما من أمة ، قبل العصر الحديث،
استطاعت ان تضاهي المسلمين في هذا الحقل ، فكشف الظنون
مثلاً يذكر أسماء ١٣٠٠ كتاب في التاريخ ، عدا الشروح ،
والاختصارات ، وهناك مئات من الكتب التي ذكرها المؤلفون
في مقدمات كتب التاريخ والجغرافية ، كمصادر اعتمدوها في
التأليف ، على انك اذا اردت الرجوع اليها ، رأيت ان معظمها
مفقود . من ذلك ان المسعودي يذكر عشرات من الكتب في
مقدمة مروجه ، لا يأتي صاحب كشف الظنون ، إلا على ذكر
القليل منها .

أما اذا اردنا ذكر ما هو مرتّب بشكل دقيق ، من كتب
التاريخ ، ذكرنا باعتبار السنين ، الطبري وابن الأثير وأبا الفداء.

وذكرنا باعتبار الأمم والدول المسعودي والفخري وابن

خلدون ، وعدداً لا يحصى باعتبار الملوك او المدن .

ويزين معظم هذه الكتب حسن العبارة ، وبلاغة الأداء ،
وإسهاب ، قد يخرج بها عن نطاق البحث .

عيوب المؤرخين المسلمين

من عيوب المؤرخين المسلمين الأُول ، اكتفاؤهم في تواريخهم
وتراجمهم ، برواية الحوادث على علاتها ، او بإسنادها الى الرواة،
غير عالمين ، ان الكثير من هذه الحوادث ، إنما وضع لأغراض
سياسية ، لا مجال لذكرها .

ومن معايبهم في هذا الباب انصرافهم « الى تدوين اخبار
الحرب ، والفتح ، والعزل والولاية، والوفاة » مشيحين بأنظارهم
عن تاريخ أحوال الدولة ، من حيث آدابها وعلومها وحضارتها ،
وقلما علّل المؤرخ الحوادث وأظهر رأيه فيها . فمؤرخوا الأعصر
العباسية مثلاً ، لا يذكرون شيئاً من مساوىء العهد الأموي ،
رغم شدة العباسيين على الأمويين ، وقد يكون سبب ذلك ، ان
معظم حوادث التاريخ الاسلامي ، متصل بأسباب دينية او
شرعية . لذلك ، يجد المؤرخ الحديث ، مشقة في تفهم حقائق
التمدن الاسلامي بالاستناد الى المؤرخين .

وسبب آخر هو السكوت عن مساوىء بعض الأمراء
والتزلف اليهم لأجل الاستفادة . يروي ابن خلّكان ان عضد
الدولة بن بويه ، كلف أبا اسحق الصابي ان يؤلف له كتاباً في

اخبار الدولة الديلمية ، فاتفق ان دخل على الكاتب الشهير أحد أصدقائه ، فرآه منهمكاً في التأليف ، فسأله عما يعمل ، فقال : « أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها » .

وجاء في نفح الطيب ان الفتح بن خاقان ، بخس ابن باجه حقه لمجرّد عداوة بين المؤلف والمترجم .

اما تصريح المؤرخين بمساوىء الخلفاء فنادر ، منه قول الفخري في انتصاره الجريء لآل علي : « ولم يكن الرشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي وهم أولاد بنت نبيّه بغير جرم » . ومنه انتقاد ابن خلدون « لأعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي » .

ومن مآخذ بعض المؤرخين المسلمين أخيراً ، ذكرهم للأخبار او الاشعار الفاحشة ، بصراحة تستنكرها مهابة التاريخ .

الجغرافية أو تقويم البلدان والرحلات

* * *

احتاج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد ، إما للتجارة وإما للفتوحات ، فكان عليهم أن يلجأوا الى التجار و الفاتحين ، لجمع ما لديهم من معلومات ، فلما تم لهم شيء من ذلك بتوالي الأزمان ، أخذوا يتداولونه .

على أنّ لفظة جغرافية ، بحد ذاتها ، كافية للدلالة ، على أن نبعة هذا الفن ، ليست عربية ، فكل ما ذكر للعرب ، قبل نقل الجغرافية الى العربية ، وصف الطرق والبلاد والمدن .

أما اول واضعي أساس هذا العلم ، فهم الفينيقيون ، أقدمُ تجّار العالم واكثرهم أسفاراً . فقد اطلعوا في أثناء اسفارهم ، على احوال كثيرٍ من البلدان ، وعرفوا المسافات بينها ، واطلعوا على تواريخ شعوبها وأخبارهم .

وها هم رجال الاسكندر ، في حملتهم على العالم ، واختراقهم آسيا الى بلاد الهند ، يشتغلون بجمع اخبار اواسط اسيا واعاليها لغرابتها .

وهنالك البطـالسة والرومـان وغيرهم ، يعملون عمل من سبقهم .

من كل ذلك تجمع على مرور الأجيال معلومات متقطعة ، ثم توجهت الجهود الى جمعها وترتيبها ، وضبط أجزائها ، وجعلها علماً . وكان أول من فعل ذلك ارتستين اليوناني المتوفي عـام ١٩٦ ق. م. وعقبه كثيرون ، امثـال الرحـالة استرابون ، والجغرافي بلينيوس حتى جاء بطليموس القلوذي في اواسط القرن الثاني للميلاد ، فألف كتاباً وافياً في الجغرافية . فلما جاء الاسلام كان هذا الكتاب مستند الباحثين في تقويم البلدان . وهو نفسه ترجمه العرب في العصر العباسي وسموه جغرافية ، كما ترجموا كتاب بطليموس الثاني وسموه المجسطي . والى هذين الكتابين خاصة ، رجعوا في كتاباتهم في علم الجغرافية .

الجغرافية عند المسلمين

على أننـا نستطيع القول ، إن المسلمين ، بدأوا بوضع الجغرافية ، قبل وقوفهم على كتاب بطليموس ، ودليلنا ، أن العرب من أكثر الامم فتحاً وغزواً ، وهم تجار من زمن الجاهلية ، فمن الطبيعي ان تزداد تجارتهم بازدياد الفتوحات بعد الاسلام . وهناك أسباب خاصة يمتازون بها :

١ ـــ الحج وهو فريضة على المسلم اينما كان

٢ ـــ الرحلة في طلب العلم ، وذلك يستلزم معرفة الاماكن

والمنـاطق . والى ذلك التفت العرب في تـآليفهم الاولى في الجغرافية . يذكر معجم ياقوت ان المؤلفين الأُوَل كانوا رواة الادب والشعر كالأصمعي ، والسكوني ثم الهمداني وابو الاشعث الكندي فيما بعد .

٣ ـــ اختلاف العرب في طرق الفتح باختلاف البلاد للحكم في اخذ الجزية وتحصيل الخراج وما الى ذلك مما يستدعي معرفة التاريخ والجغرافية .

وعند مـا نقلت الجغرافية الى العربية ، احتذى العرب على مثالها ، وزادوا عليها ما عرفوه من قبل ، وتحقّقوا الاشيـاء بأنفسهم ، فأصلحوا كثيراً من مغالط بطليموس . على أنّ هذا العلم لم ينضج إلا في القرن الرابع الهجري أي زمن نضج التاريخ.

وفي مستهل هذا القرن ألف الشيخُ ابو زيدٍ البلخي كتابه «صور الاقاليم» وقد ضاع. وكان ابو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي معاصراً لأبي زيد،قام بأسفار عديدة وعرف بنفسه كثيراً من البلاد والبحار ، فاعتمد على ذلك وعلى كتاب البلخي في تأليف كتابه « مسالك الممالك » ، لذلك ترى عنـد الاثنين تقسيم بلاد المسلمين عشرين قسماً . ونبغ نحو ذلك العهد ابن حوقل صاحب كتـاب « المسالك والممالك » . وللدلالة على اسفاره اسمعه يقول في مقدمة كتابه : « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضـان سنة ٣٣١ هـ الخ ..» وبين كتاب ابن حوقل والاصطخري شبه كبير.

وهكذا نجد أثر الرحلات في كتب الكثيرين من نوابغ القرن الرابع الهجري ، امثال ابن الفقيه الهمذاني ، والمقدسي والمسعودي ، فهذا الاخير بلغ اقاصي الهند « وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . »

وظلت هذه كتب الجغرافية عند المسلمين حتى هبّ من وضع المؤلفات التاريخية كما رأينا ، والمعجمات الجغرافية مرتبةً على احرف الهجاء ، أمثال ياقوت الحموي المتوفي عام ٦٢٦ ، فله كتابٌ ضخم هو « معجم البلدان » ، الذي يعدّ بمثابة قاموس جغرافي تاريخي أدبي ، لما تضمن من وصف البلدان وتراجم الناس . ولابي الفداء وغيره شيء من ذلك ، فضلاً عن الرحلات الكثيرة التي خدم بها العرب علم الجغرافية .

المسعودي

* * *

حيـــاته

عُرف علي بن الحسين بن علي المسعودي بتطوافه في المدن والأمصار المختلفة تطلبّاً للمعرفة. على أن أهم ما قام به رحلتان؛ الاولى عام ٩٢١ تعرّف في اثنائها الى مصر وفارس وإيران والهند وسرنديب (جزيرة سيلان) ومدغشقر وعمان . والثانية عام ٩٢٦ تعرف فيها الى مـا وراء أذربيجان وجرجان والى الشام وفلسطين . وفي سنة ٩٤٢ اختار له الفسطاط (مصر) مقراً ، فأكبّ على ما جمع في رحلاته من حقـائق تاريخية وجغرافيـة وأخذ يدوّن على ضوئها كتبه .

وكانت وفاته عام ٩٥٧ م ٣٤٦ هـ .

آثاره

أشهر كتب المسعودي الكثيرة في التاريخ ، ولم يبق منها إلا القليل . ولعل أبرز مؤلفاته ستة ، هي :

١ – كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان (وهو ثلاثون مجلداً ، لم يصل منه الينا سوى الجزء الأول) .

٢ – كتاب ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور .

٣ – كتاب الاستذكار لما مرّ في سالف الأعمار .

٤ – كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم .

٥ – كتاب التنبيه والاشراف .

٦ – كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر . وهو الذي يعنينا ، وعليه قامت شهرة المؤرخ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر

* * *

قسم المسعودي عمره « على قطع الأقطار ، ووزّع ايامه بين تقاذف الاسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه » .

والذي دعاه الى تأليف هذا الكتاب « في التاريخ ، واخبار العالم ، وما مضى في أكناف الزمان من اخبار الانبياء والملوك وسيرها ، والأمم ومساكنها ، محبّة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء ، وقفاها الحكماء ، وان يبقى للعالم ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عتيداً . فانّا وجدنا مصنّفي الكتب في ذلك مجيداً ومقصراً ، ومسهباً ومختصراً ، ووجدنا الاخبار زائدة مع زيادة الايام ، حادثة مع حدوث الازمان ، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي ، ولكل واحد قسط يخصّه بمقدار عنايته ، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله ، وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى اليه من الاخبار عن إقليمه . »

وجعل المسعودي كتابه قسمين : أودع القسم الاول الكثير

من المعلومات المفيدةعن الخليقة واخبار الرسل والانبياء وتواريخ الأمم القديمة وعن عادات الشعوب وآدابهم ومذاهبهم ، ووصف عجائب الارض والبحار . وفي ذلك يقول : « وقد وسمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لنفاسة ما حواه ، وعظم خطر ما استولى عليه : من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه ، وغرر مؤلفاتنا في مغزاه ، وجعلته تحفة للأشراف من الملوك واهل الدرايات ، لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة اليه ، وتنازع النفوس الى علمه ، ومن دراية ما سلف وغبر من الازمان ، وجعلته منبّهاً على اغراض ما سلف من كتبنا ، ومشتملاً على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها ، ولا يعذر في التغافل عنها . ولم نترك نوعاً من العلوم ، ولا فناً من الاخبار ، ولا طريقة من الآثار ، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصّلاً ، او ذكرناه مجملاً ، او اشرنا اليه بضرب من الاشارات ، او لوحنا اليه بفحوى من العبارات » .

واشتمل القسم الثاني على بعض تاريخ الاسلام ابتداءً بخلافة علي وانتهاءً بعهد المطيع الخليفة العباسي ٣٣٦ هـ ٩٤٦ م .

وفي هذا القسم ذكر لسالف الامم والشعوب والانبياء والخلفاء ووصف للأقاليم السبعة وما يتعلق بها .

نستنتج من هذا المحتوى ان الكاتب ألمّ بمعظم معارف العصر وهضم ما استوعب منها ، واستطاع ان يجعل المشاهدة والمعاينة دعامتي بحثه ، جاعلاً كتابة التاريخ رهناً بتسلسل الزمن ، وبذلك

ركّز لهذا الفن نهجه الصحيح . ولم يفته ما لعامل المحيط الجغرافي من أثر في التاريخ فيقول في حديثه على بلاد التبت : « ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبلها ، ولا يزال الانسان أبداً بها ضاحكاً فرحاً مسروراً ، لا تعرض له الاحزان ، ولا الغموم ، ولا الافكار . . » ثم يقول : « وفي بلادهم الارض التي بها المسك التّبتي ، الذي يفضل على الصيني من جهتين : احداهما ان ظباء التبت ترعى سنبل الطيب والأفاويه ، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من انواع حشائش الطيب التي ترعاها التبتية . والجهة الاخرى ان اهل التبت لا يتعرضون الى إخراج المسك من نوافجه (أوعيته) ويتركونه على ما هو به ، واهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقه الغش بالدم وغيره من انواع الغش ، وان الصيني ايضاً يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار ، وكثرة الأنداء ، واختلاف الأهوية . »

والمسعودي هو الذي علّل بعض المظاهر الطبيعية تعليلاً منطقياً فقال : « ان بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة ، إلا ان هيجانها وركودها يختلف لاختلاف مهابّ رياحها ، وإبان ثوراتها ، وغير ذلك . فبحر فارس تكثر أمواجه ، ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند ، واستقامة الركوب فيه ، وقلة أمواجه ، ويلين بحر فارس ، وتقل أمواجه ، ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند ، واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبته عند ركوبه .. »

فالمؤرخ إذن اعتمد في تأليفه على ما تركه السلف من معلومات تتعلق بموضوعه ، وعلى اختبـاراته الشخصية التي استنتجها من مشاهداته في أثناء رحلاته . فهو قد وقف على الكثير ممـا وصله من مؤلفات القدماء التاريخية والجغرافية والعلمية والادبية ، كما جمع المعلومات الجمّة مما أوحت به اليه اسفاره وملاحظاته ، وهو كثير الاعتداد بتلك الاسفـار والمشاهدات التي لا يمكن ان يتمّ تاريخ صحيح بدونها . وفي ذلك يقول في مروجـه : « على أننّا نعتذر من تقصير ان كان ، ونتنصّل من إغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا ، وعمر قلوبنا ، من تقاذف الاسفـار ، وقطع القفار ، تارة على مـتن البحر ، وتارة على ظهر الـبر ، مستعلمين بدائع الامم بالمشاهدة ، عارفين خواص الاقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين ، وتقحّمنا الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام ، فسيري في الآفـاق سُرى الشمس في الاشراق .. »

ومثل هذه الاسفار في زمن كزمن المسعودي المتقدم ، لا بد ان تحف بها المخاطر من كل جـانب ، وتقوم بوجهها العقبـات والصعاب من كل صوب ، فاسمعه يقول ذاكراً شيئاً من ذلك في كلامه على البحر الحبشي : « وقد ركبت عـدّة من البحـار ، كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ، وأصابني فيها من الاهوال مـا لا أحصيه كثرة ، فلم أشـاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره ، وفيه السمك المعروف بأفال ، طول السمكة

نحو أربعمائة ذراع الى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية ، هي ذراع ذلك البحر . . . وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو اكثر من ممر السهم ، والمراكب تفزع منـه في الليل والنهار ، وتضرب له بالدبادب (الطبول) والخشب لينفر من ذلك . . »

وبكلمة فكتاب « مروج الذهب ومعـادن الجوهر » مؤلف جامع ، فيه تراث العصر بالنسبة الى العرب وسائر الأمم ، وفيه الاختبارات الشخصية ، بالاضافة الى عنصر الخرافة الذي حفلت به قصصه ، فهو الى جانب كونه كتاباً في التاريخ والجغرافية ، سفر في الاجتماع والادب .

أما أسلوبه فواضح متنوّع ، يقـوده الطبع حينـاً ويشده الصنيع أحيـاناً . وكسائر كتب الرحلات ، ليس فيه دائمـاً حقائق راهنة ، فقد يشوبه الاضطراب ويفوته التنقيب العلمي ، فيقول صاحبه مثلاً في حـديثه عن حركتي المـد والجزر متأثراً بأخبار أهل السير والقصص عن الملك الموكل بالبحـار : « يضع عقبه في أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكوّن المد ، ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء الى مركزه ويطلب قعره ، فيكون الجزر . »

ويشوب الكتاب عدم تقيد بوحدة الموضوع شأن الكثير من كتب العرب والأعاجم ، مما يبعده عن أصول كتابة التاريخ وما يتطلب ذلك من دقة وتسلسل .

ومهما يكن فمروج المسعودي إحدى كبرى المحاولات في تثبيت دعائم هذا الفن الكتابي الضخم المتصل بصلب الأمم وجوهر الشعوب .

* * *

بقي علينا ، إنصافاً للكلمة ، من حيث هي مسؤولية في التعبير ، ان نقول : ان التاريخ قوامه حدوث الشيء وصحة نقله. من هنا كان المؤرخ عالماً ، يميزه عن الراوية ، تنخّل الاخبار المروية ، واخضاعها للبصيرة النافذة ، المستندة الى ذخيرة ثقافية واسعة ، وخبرة تأتت من البحث والتنقيب .

وكثيراً ما يتطلب التاريخ استنتاجات راهنة مكمّلة من لدن المؤرخ ، لا سيما فيما يتعلق بالنقد ، هيأتها له مشاركة عميقة للأحداث ، وفقه مدرك لتتابعها ، بالاضافة الى ما حمّلته إياه الثقافة والتجارب من معلومات .

ان لتحقيق التاريخ أصولاً مرعية ، وهي ليست تامة المعالم عند مؤرخي العرب الأولين عامة والمسعودي خاصة . من مثل ذلك استنادهم الى الحديث المعنعن . فصاحب مروج الذهب ينقل الخبر احياناً مكتفياً بإسناده الى الرواة ، غير مقيم للمنطق ، ومجاراة العقل وإمكانية الحدوث شأناً . انه يقتنع بالخرافة او بنبوءات الكهان وتعليلاتهم لبعض الأمور ، فيقول معهم مثلاً ان فأراً أحدث ثقباً في سد مأرب المشهور سبّب سيل العرم .

لقد كان عليه وهو يتحدث عن خراب السد ، ان يحيطه

بالواقع التاريخي ، فيُلمّ بأسباب الكارثة ونتائجها ، لا ان ينجرف بأقاويل الكهّان ، وينساق لمزاعمهم دون تعليل وامتحان .

وكثيراً ما ينقاد المسعودي باستطراداته الى الانقطاع عن مجرى التاريخ الصحيح ، فتقوده اللفظة الى اقوال لا تنتظم والسرد العلمي الخالص ، فتختل امام عينيه وحدة الموضوع . لذلك حفل كتابه بأشياء لا تستقيم على ميزان النقد .

ان على المؤرخ ان لا يؤخذ بالشائع من الاخبار ، لا سيما اذا كانت حصيلة شعب بدائي يعجز عن ادراك كنه حقائق الواقع وفصلها عن الأساطير ، بل عليه ان يسقط العنصر الخرافي عن الاشياء ويواجه الحقيقة بالتحقيق التاريخي والملاحظات العلمية مسفـّهاً ما يتنافى والعقل المحض .

بيد ان المسعودي يعرف كيف يخلق جو الحادثة المشوّق ، فتبدو الرواية على يديه تعبيراً عن العصر الذي يؤرخه ، وبذلك يضيف الى السرد التاريخي الصرف المناخ الملائم له .

مختـارات

مـــن

كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر

***

سيل العرم

ذكر اصحاب التاريخ القديم ان ارض سبأ كانت من اخصب ارض اليمن ، وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جناناً وغيطاناً ، وأفسحها مروجاً ، مع بنيان حسن ، وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة . وكانت مسيرة اكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة ، وفي العرض مثل ذلك ، وان الراكب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها الى ان ينتهي الى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستتار الارض بالعمارة الشجرية واستيلائها عليها ، واحاطتها بها . وكان اهلها في اطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال ، وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفّق الماء ، وقوة الشوكة ،

واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الارض مثلاً . وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الاخلاق ، وطلاب الافضال على القاصد والسفر بحسب الامكان وما توجبه القدرة من الحال ، فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قسموه ، ولا يوافيهم جبّار في جيش إلا كسروه . فذلّت لهم البلاد ، وأذعن لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الارض. وكانت المياه التي هي اكثر ما يرد الى ارض سبأ تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من ذلك السد والجبال ، طول المخراق فيما وصفنا فرسخ ، وكان وراء السد والجبال انهار عظام ، وكان في هذا المخراق الآخذ من تلك الانهار ثلاثون نقباً مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضاً مدوّرة على أحسن هندسة وأكمل تقدير ، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتى تأتي الجنان فترويها سقياً ، وتعمّ شرب القوم ، وقد كانت أرض سبأ قبل ما وصفنا من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه. وكان ملك القوم في ذلك الزمان يقرّب الحكماء ، ويدنيهم ، ويؤثرهم ، ويحسن اليهم ، فجمعم من اقطار الارض للالتجاء الى رأيهم ، والاخذ من محض عقولهم . فشاورهم في دفع ذلك السيل وحصره ، وذلك انه كان ينحدر من أعالي الجبل هابطاً على رأسه حتى يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء . فأجمع القوم رأيهم على عمل مصارف له الى براري تقذف به الى البحر ، واخبروا الملك ان الماء اذا حفرت المصارف الهابطة طلبها ، وانحدر فيها ، ولم يتراكم حتى يعلو الجبال لأن في طباع الماء طلاب الخفض . فحفر

الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع الى تلك الجهة .
واتخذوا السد في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء من الجبل الى الجبل ، وجعلوا فيه المخراق على ما وصفنا آنفاً ، ثم اجتذبوا من تلك المياه نهراً مرسلاً ومقداراً معلوماً ينتهي في جريانه الى المخراق ثم ينبعث الماء منه الى تلك الأنقاب ، وهي الثلاثون مخراقاً الصغار التي قدمنا ذكرها ، وكانت البلاد عامرة على ما وصفنا آنفاً .

ثم ان تلك الأمم بادت ، ومرت عليها السنون ، وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله ، وعمل الماء في أصول ذلك المخراق ، وأضعفه مر السنين عليه وتدافع الماء حوله .

فلما سكنت أبناء قحطان ما وصفنا من هذه الديار وتغلبت على من كان فيها من القطّان لم تعلم الآفة من انحطام السد والمخراق وضعفه ، فغلب الماء عند تناهي السد والبنيان في الضعف عنه على السد والمخراق والبنيان ، فقذف به في جريه ورمى به في تياره وذلك إبان زيادة الماء ، واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان ، حتى انقرض سكان تلك الارض ، وزالوا عن تلك المواطن فهذه جملة من اخبار سيل العرم وبلاد سبأ .
ولا خلاف بين ذوي الدراية منهم ان العرم هو المُسنّاة[1] التي قد أحكموا عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل ، ففجرته فأرة ليكون ذلك أظهر في الاعجوبة ، كما أفار الله تعالى

(١) المسنّاة : ما يبنى بوجه السيل .

ماء الطوفان من جوف تنّور ليكون أثبت في العبرة وأوكد في الحجة . ولا يتناكر احلاف قحطان من اهل تلك الديار الى هذا الوقت ما كان من العرم ، لاستفاضته فيهم وشهرته عندهم .

وعندما يسأل الملك عمرو الكاهنة ظريفة عن سبب تهدم السد تقول : تذهب الى السد فاذا رأيت جرذاً يكثر بيديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم ان النقر[1] عقر ، وانه قد وقع الأمر . قال : وما هذا الأمر الذي يقع ؟ قالت : وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل .

فانطلق عمرو الى السد يحرسه ، فاذا جرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً . فرجع الى ظريفة فأخبرها الخبر فقالت له ظريفة : ان من علامة ما ذكرت لك ان تجلس في مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادي ورمله ، وقد علمت ان الجنان مُظلة ما يدخلها شمس ولا ريح ، فأمر بزجاجة فوضعت بين يديه ، فلم يمكث إلا قليلاً حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فذهب عمرو الى ظريفة فأخبرها بذلك ، وقال : متى ترين هلاك السد ! قالت : فيما بينك وبين السبع سنين ، قال : ففي أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه احد لعلمته ، ولا يأتي عليك ليلة فيما بينك وبين السبع سنين إلا ظننت هلاكه في غدها او في تلك الليلة .

(١) النقر : النقب والحفر . والعقر : الفرجة ما بين كل شيء .

ورأى عمرو في النوم سيل العرم ، وقيل : ان آية ذلك ان ترى الحصباء[1] قد ظهرت في سعف النخل ، فذهب الى كَرَبَ النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم ان ذلك واقع بهم ، وان بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع ان يبيع كل شيء بأرض سبأ ويخرج منها هو ووُلْدُه .

ذكر بحر الروم

أما بحر الروم وطرسوس وأدرنة والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصيداء وصور ، وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والاسكندرية وساحل المغرب ، فذكر جماعة من اصحاب الزيجات[2] في كتبهم ،منهم محمد بن جابر النساني وغيره ، ان طوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه مختلف ، فمنه ثمانمائة ميل ، ومنه سبعمائة ميل ، ومنه ستمائة ميل وأقل من ذلك ، على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر .

ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج جارياً من بحر أقيانوس[3] وأضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة من بلاد المغرب وبين ساحل الاندلس . وهذا الموضع المعروف بنيطاء ، عرضه

---

(١) الحصباء : صغار الحصى .

(٢) الزيجات،جمع الزيج: كتاب عند الفلكيين تعرف به أحوال الكواكب، وهو من لفظ فارسي .

(٣) بحر أقيانوس : المحيط الأطلسي .

فيما بين الساحلين نحو من عشرة أميال . وهذا الموضع هو المعبر لمن أراد العبور من الغرب الى الاندلس ومن الاندلس الى الغرب .

وعلى الحد بين البحرين ، أعني بحر الروم وبحر أقيانوس ، المنارة النحاس ، والحجارة التي بناها هرقل الجبار على اعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها : ان لا طريق ورائي لجميع الداخلين الى ذلك البحر ، بحر الروم ، اذ كان بحراً لا تجري فيه جارية ولا عمارة فيه ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تُرى غايته ، ولا يُعلم منتهاه ، وهو بحر الظلمات والأخضر المحيط[1] . وقد ذهب قوم أن هذا البحر أصل ماء البحار . وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان ، في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف ، وما شاهدوا منه وما رأوا .

وبين هذه المنارة المنصوبة وبين موضع الاحجار مسافة في طول مصب هذا الخليج وجريانه ...

وعلى هذا الخليج من جانب المغرب ، قرية يقال لها سبتة ، وهي وطنجة من ساحل واحد . ويقابل سبتة هذه من ناحية الاندلس الجبل المعروف بجبل طارق ، مولى موسى بن نصير . ويعبر الناس من سبتة الى ساحل الاندلس من غدوة الى الظهر . وفي هذا الخليج موج عظيم . والماء من هناك يخرج من بحر أقيانوس ويصب الى البحر الرومي . وفي هذا الخليج مواضع تعلو

---

(١) بحر الظلمات والأخضر المحيط أي الاطلنطي .

أمواجها ويعلو الماء من غير ريح . وهذا الخليج تسميه اهـل المغرب ، واهل الاندلس ، الزقاق إذ كان على هيئة ذلك .

وفي بحر الروم جزائر كثيرة، منها جزيرة قبرص بين ساحل الشام والروم . وجزيرة رودس في مقابلة الاسكندرية . وجزيرة إقريطش[1]. وجزيرة صقلية. وسنذكر صقلية بعد هذا الموضوع عند ذكرنا الجبـل البركان الذي تظهر منـه النار فيهـا أجسام وجثث وعظام .

بعض عادات الهند

والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة . ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة . ويكون ظهورها للنظر في أمـور الرعية ، لأن في نظر العـوام عندها الى ملوكها خرقاً لهَيبتها ، واستخفافاً بحقها ، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخيُّر ووضع الاشياء مواضعها من مراتب السياسة .

ورأيت في بلاد سرنديب — وهي جزيرة من جزائر البحر — ان الملك من ملوكهم اذا مات صُيِّر على عجلة قريبة من الارض ، صغيرة البكـَرة ، مُعدَّة لهذا المعنى ، وشعرُه ينجرُّ على الارض ، وامرأة بيدها مكنسةٌ تحثو التراب[2] على رأسه وتنادي : «أيها

(١) اقريطش : كريت .
(٢) حثا التراب : صبَّه .

الناس ، هذا ملككم بالأمس ، قد ملككم وجاز فيكم حكمه وقد صار أمره الى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي القديم الذي لا يموت ، فلا تغترُّوا بالحياة بعده » . وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم . ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة ، ثم يُفصل اربع قطع ، وقـد هيِّيء له الصندل[1] والكافور وسائر انواع الطيوب ، فيحرق بالنار ويُذرُّ رماده في الرياح. وكذا فعل اكثر اهل الهند بملوكهم وخواصِّهم ، لغرض يذكرونه ، ونهج يتيمَّمونه في المستقبل من الزمان . والمُلك مقصور على اهل بيت لا ينتقل عنهم الى غيرهم وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر اهل المراتب لا تغـير ولا تبدل .

والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنّفون شاربه ، لا على طريق التدين، ولكن تنزُّهاً عن ان يوردوا على عقولهم ما يُغشيها، ويزيلها عمـا وضِعت له فيهم . واذا صح عنـدهم عن ملِك من ملوكهم شُربُه استحق الخلع عن ملـكه ، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط[2]، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروبٌ من الآلات مطربةٌ تفعل في الناس افعالاً مرتبة من ضحك وبكاء . وربما يسقون الجواري فيطربْن بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجواري .

(١) الصَّندل : شجر طيب الرائحة .
(٢) الاختلاط : فساد العقل .

والفيلة في بلاد الزنج في نهـاية الكثرة ، وحشية كلـُّها غـير مستأنسة . والزنج لا تستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها ، بل تقتـُلها ، وذلك أنهم يطرحون لها نوعـاً من ورق الشجر ولحائه[١] وأغصانه يكون بأرضهم في المـاء ، ويختفي رجـال الزنج ، فترِدُ الفيلة لشربها ، فاذا وردت وشربت من ذلك الماء حرقها وأسكرها ، فتقع ، ولا مفاصل لقوائمها ولا رُكـَب على حسب ما قدمنا، فيخرجون اليها بأعظم ما يكون من الحراب، فيقتلونها لأخذ أنيابها . فمن أرضهم تجهَّز أنياب الفيلة ، في كل باب منها خمسون ومـائة مَنّ[٢] بل اكثر من ذلك . فيجهز الاكثر منها من بلاد عمان الى أرض الصين والهند ، وذلك انهـا تُحمَل من بلاد الزنج الى عمان ، ومن عمـان الى حيث ذكرنا ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الاسلام كثيراً .

ذكر مصرع الخليفة الامين

قال محمد[٣] : وكيف لنا بالخلاص الى هرثمة[٤] ولات حـين مناص ؟

(١) اللِحاء : قشر الشجر .
(٢) المنّ : ميزان يساوي ١٨٠ مثقالاً . والمثقال يساوي نحو درهم ونصف الدرهم .
(٣) الخليفة محمد الأمين .
(٤) هرثمة : أحد قواد المأمون الذين حاصروا بغداد .

وراسل هرثمة ومال الى جنبته، فوعده هرثمة بكل ما احب، وانه يمنعه ممن يريد قتله . وبلغ ذلك طاهراً ، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه ، ووعده[١] هرثمة ان يأتيه في حراقة[٢] الى مشرعة[٣] باب خراسـان فيصير بـه الى عسكره ومن أحب . فلما هم محمد بالخروج في تلك الليلة ، وهي ليلة الخميس لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، دخل اليه الصعاليك من اصحابه وهم فتيان الأبناء والجند ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك . ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة . وفي اصطبلك سبعة آلاف فرس . ونفتح بعض أبواب المدينة ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا احـد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة . فنجبي الأموال ونجمع الرجـال ونتوسط الشـام وندخل مصر، ويكثر الجيش والمال وتعود الدولة مقبلة جديدة.

فقال : هذا والله الرأي ! فعزم على ذلك وهمّ به وجنح اليه.

وكان لطاهر[٤] في جوف دار الأمين غلمان وخدم من خاصة الأمين ، يبعثون اليه بالاخبار سـاعة فساعة . فخرج الخـبر الى طاهر من وقته ، فخاف طاهر وعلم انه الرأي ان فعله . فبعث الى سليمان بن أبي جعفر ، والى ابن نهيك ، والسندي بن شاهك،

(١) الضمير في « وعده » عائد الى الخليفة الأمين .
(٢) حراقة : مركب .
(٣) المشرعة : مكان الاستقاء من النهر .
(٤) طاهر : قائد جيش المأمون في الفتنة بينه وبين أخيه .

وكانوا مع الأمين : إن لم تزيلوه عن هذا الرأي لأخربن ضياعكم ، وأزيل نعمكم ، وأتلف نفوسكم . فدخلوا على الأمين في ليلتهم فأزالوه عن ذلك الرأي .

وأتاه هرثمة في الحراقة الى باب خراسان . ودعا الأمين بفرس يقال له الزهيري ، أغر محجل[1] أدهم محذوف[2] . ودعا الأمين بابنيه موسى وعبدالله وعانقهما وشمهما وبكى. وقال : الله خليفتي عليكم ، فلست أدري أألتقي معكما بعدها أو لا . وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود وقدامه شمعة حتى أتى باب خراسان الى المشرعة ، والحراقة قائمة . فنزل ودخل الحراقة ، فقبّل هرثمة بين عينيه .

وقد كان طاهر نمي اليه خروجه[3] فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين في الزوارق وعلى الشط . فدفعت الحراقة . ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله . فأتى أصحاب طاهر عراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها . فلم يكن لهرثمة شاغل إلا بحشاشة نفسه ، فتعلق بزورق وصعد اليه من الماء ومضى الى عسكره الى الجانب الشرقي . وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح فوقع نحو العراة الى عسكر قرين الديراني ، غلام طاهر . فأخذه بعض السوّاس حين شمّ منه رائحة المسك والطيب . فاستأذن

(١) محجل : في قوائمه بياض .
(٢) محذوف : حذف من صنعه كل ما يعيبه .
(٣) نمى اليه : بلغه .

فيه طاهراً فأتاه الاذن في الطريق ، وقد حُمل الى طاهر فقتل في الطريق وهو يصيح : إنا لله وإنا اليه راجعون. أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخو المأمون ، والسيوف تأخذه حتى برد[1] ، وأخذوا رأسه، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر احمد بن سلّام ، وقد كان مع الأمين في الحراقة حين أصيب ، فسبح فقبض عليه بعض اصحاب طاهر وأراد قتله فأرغبه في عشرة آلاف درهم ، وانه يحملها اليه في صبيحة تلك الليلة ، قال : فأدخلت بيتاً مظلماً . فبينا انا كذلك إذ دخل علي رجل عريان عليه سراويل وعمامة متلثماً بها وعلى كتفه خرقة ، فجعلوه معي وتقدموا الى من في حفظنا[2] فلما استقر في البيت حسر العمامة عن وجهه، فاذا هو محمد، فاستعبرت[3] واسترجعت فيما بيني وبين نفسي ، وجعل ينظر إليّ ، ثم قال : أيهم أنت ؟ قلت : أنا مولاك يا سيدي . فقال وأي الموالي أنت ؟ قلت : احمد بن سلّام قال : واعرفك بغير هذا ، كنت تأتيني بالرقة[4] . قلت : نعم . ثم قال : يا احمد . قلت : لبيك يا سيدي . قال : أدن مني وضمني اليك فاني اجد وحشة شديدة . قال : فضممته إليّ فاذا قلبه يخفق خفقاناً شديداً .

(١) برد : مات .
(٢) الى من في حفظنا : الى من وكلوهم بحراستنا .
(٣) استعبرت : بكيت .
(٤) الرقة : مدينة في سوريا .

ثم قال : أخبرني عن أخي المأمون أحي هو؟ قلت له : فهذا
القتال عمن إذن ؟ قال : قبحهم الله ! ذكروا انه مات . قلت :
قبح الله وزراءك فهم أوردوك الى هذا المورد . فقال لي : يا احمد
ليس هذا موضع عتاب فلا تقل في وزرائي إلا خيراً فما لهم ذنب ،
ولست بأول من طلب أمراً فلم يقدر عليه . قلت : إلبس إزارك
هذا وارم بهذه الخرقة التي عليك . فقال : يا احمد من كان حاله
مثل حالي فهذه له كثير . ثم قال لي : يا احمد ما أشك انهم
سيحملونني الى اخي ، أفترى اخي قاتلي ؟ قلت : كلا ، ان
الرحم[١] ستعطفه عليك . فقال لي: هيهات! الملك عقيم لا رحم
له . فقلت له : ان أمان هرثمة أمان اخيك . ولقنته الاستغفار
وذكر الله .

فبينا نحن كذلك إذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه
سلاح ، فاطلع في وجه محمد مستثبتاً له . فلما اثبته معرفةً خرج
واغلق الباب وإذ هو محمد الظاهري ، فعلمت ان الرجل مقتول ،
وقد كان بقي علي من صلاتي الوتر[٢] ، فخفت ان أُقتل معه ولم
أوتر . فقمت لأوتر فقال لي : يا احمد لا تبعد مني وصلّ بقربي
فاني اجد وحشة شديدة . فدنوت منة فقلّ ما لبثنا حتى سمعنا
حركة الخيل ودق باب الدار ، ففُتح الباب فاذا قوم من العجم
بأيديهم السيوف مصلتة فلما أحسّ بهم محمد قام قائماً وقال : إنا

(١) الرحم : القرابة .
(٢) الوتر في الصلاة : الركعة الواحدة .

لله وإنا اليه راجعون . ذهبت والله نفسي في سبيل الله . أما من
حيلة ، أما من مغيث ؟ وجاؤوا حتى قاموا على باب البيت الذي
نحن فيه وجعل بعضهم يقول : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً .
فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول : انا ابن عم رسول الله ، انا
ابن هارون الرشيد ، انا اخو المأمون ، الله الله في دمي . فدخل
عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه ضربة في مقدم رأسه وضرب
محمد رأسه بالوسادة التي كانت في يده واتكأ عليه ليأخذ السيف
من يده فصاح بالفارسية : قتلني الرجل . فدخل منهم جماعة
فنخسه احدهم بسيفه في خاصرته وكبوه فذبحوه من قفاه واخذوا
رأسه ومضوا به الى طاهر . وقد قيل في كيفية قتله غير هذا .
وقد أتينا على التنازع في ذلك الكتاب الأوسط .

ولما وضع رأس الأمين بين يدى طاهر قال: اللهم مالك الملك
تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذلّ
من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . وحمل الرأس
الى خراسان الى المأمون في منديل والقطن عليه والأطلية[١] ،
فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه . فقال له الفضل بن
سهل : الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجلية ، فان محمداً
كان يتمنى ان يراك بحيث رأيته . فأمر المأمون بنصب الرأس في
صحن الدار على خشبة ، واعطى الجند، وأمر كل من قبض رزقه
ان يلعنه ، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس . فقبض بعض

(١) الأطلية : جمع طلاء ، المرهم .

العجم عطاءه فقيل له : إلعن هذا الرأس . فقال : لعن الله هذا ولعن والديه .. فقيل له : لعنت أمير المؤمنين . وذلك بحيث يسمعه المأمون منه. وتغافل وأمر بحطّ الرأس .. وطيّب الرأس وجعله في سفط[1] ورده الى العراق مع جثته .

مجالس الخلفاء

وذكر محمد بن يزيد المبرّد قال : « ذُكرتُ للمتوكل لمنازعة جرت بينه وبين الفتح بن خاقان في تأويل آيةٍ ، وتنازع الناس في قراءتها، فبعث الى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي ، وكانت اليه البصرة ، فحملني اليه مكرماً ... ووردت سُرَّ مَن رأى[2]، فأُدخلت على المتوكل، وقد عمِل فيه الشراب . فسُئلت عن بعض ما وردتُ له، فأجبت . وبين يدي المتوكل ، البحتريُّ الشاعر ، فابتدأ يُنشده قصيدة يمدح بها المتوكل ، وفي المجلس ابو العَنْبَس الصَيمَريّ ، فأنشد البحتري قصيدته التي أولها :

عن أي ثغرٍ تبتسمْ   وبأي طرفٍ تحتكمْ
حسنٌ يُضيء بحسنه   والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر   المتوكل ابن المعتصم
المرتضى ابن المجتبي   والمنعم ابن المنتقم

(٢) سفط : وعاء .
(١) سُرّ من رأى : سامرّا ، وهي مدينة بناها المعتصم ليجعل فيها جنده الاتراك بعد ما ضجّت بهم بغداد .

يا بانيَ المجد الذي   قد كان قُوِّض فانهدم
إسلَم لدين محمَّدٍ   فاذا سَلمتَ فقد سَلِم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف ، فوثب ابو العنبس فقال : يا أمير المؤمنين ، تأمر برده ، فقد والله عارضتُه[1] في قصيدته هذه . فأمر برده ، فأخذ ابو العنبس ينشد شيئاً لولا ان في تركه بَتراً لما ذكرناه ، وهو :

من أي سلحٍ تلتقمْ   وبأي كفٍّ تلتطم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفَحَص[2] برجله اليسرى ، وقال : يدفع الى ابي العنبس عشرة آلاف درهم . فقال الفتح : يا سيدي ، البحتري الذي هُجي وأُسمع المكروه ينصرف خائباً ؟ قال : ويُدفع للبحتري عشرة آلاف درهم . قال يا سيدي ، وهذا البصري الذي أشخصناه من بلده، لا يشركهم فيما حصّلوه؟ قال : ويُدفع اليه عشرة آلاف درهم . فانصرفنا كلُّنا في شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحتري جِدُّهُ واجتهاده وحزمه .

ثم قال المتوكّل لأبي العنبس : اخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا[3] التي أُريتها . قال : نعم يا امير

(١) عارضته : قابلته ، رددت عليه .
(٢) فحص برجله : بحث ، حفر .
(٣) الرؤيا : الحلم .

المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جريرة ولا زلّة ، فاعتلّ في غفلة ، فمات منها ، فرأيته فيما يرى النائم ، فقلت له : يا حماري ، ألم أبرّد لك الماء ، وأُنقّ لك الشعير ، وأُحسن لك جُهدي ، فلِمَ مُتّ على غفلة ؟ وما خبرُك ؟ قال : نعم ، لما كان في اليوم الذي وقفت على فلان الصيدلاني تكلّمه في كذا وكذا ، مرّت بي أتان(1) حسناء ، فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبي ، فعشقتها واشتد وجدي بها ، فمتُّ كمداً متأسفاً. فقلت له: يا حماري ، فهل قلت في ذلك شعراً ؟ قال نعم ، وأنشدني :

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
تيّمتني يوم رُحنا بثناياها الحِسان
وبخدّين أسيلين كلون الشنقراني(2)
فبها متّ ولو عشتُ إذاً طال هواني

قال : قلت : يا حماري ، فما الشنقراني ؟ فقال : هذا من غريب الحمير . فطربَ المتوكل ، وامر المُلهين والمغنين ان يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح في ذلك اليوم فرحاً شديداً ، وسُرّ سروراً لم يَرَ مثله، وزاد في تكرِمة ابي العنبس وجائزته .

تدبير مقتل المتوكل

وذكر سعيد بن نكيس قال : كنت واقفاً بين يدي المتوكل

(1) الاتان : الحمارة .
(2) الاسيل : الاملس .

في مِضربه بدمشق اذ شَغَبَ الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية، ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمي بالنشّاب، وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرُّواق ، فقال لي : يا أبا سعيد ، ادعُ لي رجاء الحضاري ، فدعوته ، فقال له : يا رجاء ، أما ترى ما خرج اليه هؤلاء ؟ فما الرأي عندك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كنت مُشفقاً(1) في هذا السفر من مثل هذا ، فأشرت بما أشرت من تأخيره . فمال امير المؤمنين اليه ، وقال : دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك . فقال : يا امير المؤمنين ،توضع الاعطية . فقال له : فهذا ما أرادوا ، وفيه مع ما خرجوا اليه ما يُعلم . قال : يا امير المؤمنين ، مُر بهذا فان الرأي بعده . فأمر عُبَيد الله بن يحيي بوضع الاعطية فيهم . فلما خرج المال وبدِيء بانفاقه دخل رجاء فقال: مُر الآن يا امير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العراق ، فانهم لا يأخذون مما أُخرج اليهم شيئاً . ففعل ذلك ، فترك الناس الأعطية ، فرجعوا ، حتى ان المعطي ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه .

قال سعيد : وقد كان الأتراك قد رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يُمكنهم فيه حيلة بسبب « بُغا » الكبير ، فانهم دبّروا في ابعاده عنه ،فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها : ان « بغا » دبّر ان يقتل امير المؤمنين ، والعلامة في ذلك ان يركب في يوم كذا في خيله ورَجْلِه ، فيأخذ عليه اطراف

(1) مشفقاً : خائفاً ، محاذراً .

عسكره ، ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه
فيفتكون به . فقرأ المتوكل الرقاع ، فبُهت مما تضمّنته ، ودخل
في قلبه من « بغا » كل مدخل ، وشكا الى الفتح ذلك ، وقال له
في امر بغا والاقدام عليه ، وشاوره في ذلك ، فقال : يا أمير
المؤمنين ، ان الذي كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل في وقت
بعينه سمّاه له ، من ركوب الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله
بنواحيه ، وبعد ذلك يتبين الامر ، وأنا أرى ان تُمسك ، فان
صح هذا الدليل نظرنا كيف نفعل ، وان بَطلَ ما كُتِبَ به
فالحمد لله ... فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكّن به ما عندهم من
الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها في مضرب بغا يقولون فيها : ان
جماعة من الغلمان والاتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في
عسكره ، ودبّروا ذلك ، واتفقوا عليه ، وتعاقدوا على ان
يأتوه من نواحي كذا ، ونواحي كذا ، فالله الله إلا ما احترست
لامير المؤمنين وحرَستَه في هذه الليلة من هذه المواضع وحصنتها
بنفسك ومن تثق به ، فانا قد نصحنا وصدقنا . واكثروا طرح
الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة ، فلما وقف بغا
عليها وتتابعت عليه لم يأمن ان يكون ما كُتِب اليه فيها حقاً،
مع ما كان وقع عليه من الامر قبل ذلك ، فلما كانت الليلة التي
ذكروها جمع جيوشه وامرهم بالركوب بالسلاح ، وركب بهم الى
المواضع التي ذُكِرَت ، فأخذها على المتوكل وحرَسَها . واتصل
الخبر بالمتوكل فلم يشكّ ان ما كُتِب له حق ، فأقبل يتوقّع من
يُوافيه فيفتك به ، وسهر ليلته ، وامتنع من الاكل والشرب ،

فلم يزل على تلك الحال الى الغداة ، وبغا يحرسه ، والامر عند
المتوكل على خلاف ذلك ، وقد اتّهمَ بغا واستوحش من فعله ،
فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له : يا بغا ، قد أبت نفسي
مكانك مني ، ورأيت أن أُقلّدك هذا الصُّقع[1] وأُقرّ عليك ما
ما كان لك من رزق ومعونة وكل سبب. فقال : انا عبدك ياامير
المؤمنين ، فافعل ما شئت ، وامرني بما احببت . فخلّفه بالشام
وانصرف ، فأحدث الموالي عليه ما أحدثوا، فلم يعلم المتوكل وجه
الحيلة ، ولم يعلم كل واحدٍ منهما الحيلة في ذلك الى ان تمّت الحيلة .

(١) الصقع : الناحية .

ابن بطّوطة

٧٠٣ – ٧٧٩ هـ ١٣٠٤ – ١٣٧٧ م

* * *

حياة الرحالة المغربي

عرف شمس الدين محمد بن عبدالله بابن بطّوطة ، وكان مولده سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٤ م في طنجه – احدى بلدان الشمال الافريقي – فنسب اليها .

أشهر ما له في عالم الاسفار رحلات ثلاث. كان الدافع الى القيام بالرحلة الاولى الحج الى مكة لزيارة البيت الحرام ، بعد ان جاوز الحادية والعشرين من العمر ، واستكمل دراسته في الفقه والادب والقضاء جرياً على تقاليد الاسرة .

على ان حبّ التجوال المتأصل في جذوع الرحالة المغربي يشاء أن تبدأ هذه الرحلة – وهي وليدة المناسبة – لتدوم ثمانية وعشرين عاماً جاب في اثنائها شتى الامصار والممالك .

انطلق من طنجه الى افريقية الشمالية فزار مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ثم مصر ففلسطين فسورية فالحجاز حيث يقصد . وبعد ان أتمّ فريضة الحجّ – للمرة الاولى – تابع الرحلة الى فارس ، والعراق ، والأناضول ، وعاد الى مكة ثانية مروراً بالموصل وديار بكر . وبعد ان ارتحل الى اليمن في جنوبي الجزيرة العربية والى عمان والبحرين والاحساء من الخليج الفارسي ، وجاوز كل ذلك الى افريقية الشمالية ، عاد للمرة الثالثة الى مكة مروراً بالخليج الفارسي من جديد .

ومن ثم قصد مصر فلم يلبث ان غادرها متجهاً نحو فلسطين فالاناضول فشبه جزيرة القرم . ومن هناك ابحر الى القسطنطينية برفقة إحدى الملكات .

وانطلق الى الهند عابراً بخارى ، وخوارزم ، وخراسان ، وكردستان ، وافغانستان ، وفي دلهي – او دهلي كما يسميها – شغل احد مناصب القضاء حتى اذا بعث به السلطان مع احد الوفود ، لحمل بعض الهدايا الى ملك الصين ، هبت عاصفة في أحد الثغور الهندية على المركب فأغرقته . فلم يعد ابن بطّوطة الى السلطان بل قضى حوالي سنة ونصف السنة في احدى الجزر المجاورة ، تولى فيها من جديد منصباً في القضاء .

وشعر بعد ذلك برغبة في زيارة الصين ، لكثرة مغرياتها ، فقصدها بعد أن مرّ بسيلان والبنغال وشبه جزيرة الملايو . ومن

هناك عبر الى جزيرة سومطرة ثم اتجه نحو بلاد العجم ففارس فالعراق فسوريا فمكة للمرة الرابعة .

عندها تذكر الرحالة الأوطان ، وحنّ الى الاهل والخلّان ، وتاق الى بلاده التي لها الفضل على البلدان – كما يقول – فعاد الى فاس ماراً بمصر فتونس الخضراء ، فالجزائر ، فوصل المغرب بعد الغياب الطويل سنة ٧٥٠ هـ. ١٣٤٩ م.

وما كاد يستقر به المقام في فاس حتى نهض الى الرحلة الثانية ، فكانت الى اسبانية ، حيث تعرف في اثناء ترحاله الى سبتة وجبل طارق ومالقة وغرناطة . على ان مقامه هناك لم يطل ، فرجع الى فاس ، ليهيّء نفسه للرحلة الثالثة ، وكانت هذه المرة الى افريقية ، حيث قضى سنتين زار خلالها بعض المناطق الافريقية ، وأفل بعدهما الى فاس من جديد حيث امضى بقية عمره .

وتشاء الظروف ان يتصل بسلطان مراكش ، ابي عنان المرّيني فكان هذا الاتصال فاتحة خير على ابن بطوطة والادب معاً ، إذ فسحت للرحالة الكبير فرصة التدوين ، وأغنته عن الترحال بفضل ما أفاء عليه هذا السلطان من وافر النعم . فبعد ان سمع هذا الاخير سرد ابن بطوطة لعجائب اخباره ومستغرب مشاهداته ، يرويها عنده لمن تجمع حوله ، دعاه الى اثبات ذلك ، « فغمره من احسانه الجزيل ، وامتنانه الحفيّ

الحفيل ، ما انساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول الترحال . وخصّ به كاتبه « ابن جُزَيّ » الذي صاغ ما املاه عليه ابن بطوطة في تصنيف ما جاء على فوائده مشتملاً ونيل مقاصده مكملاً ، ووسمه باسم « تحفة النظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » . وكان الانتهاء من التدوين عام ١٣٥٦ .

ووافت المنية هذا الرحّالة الجوّاب في فاس سنة ١٣٧٧ م فخبت جذوة اللهب في رجل تقاسمت عمره الاسفار .

تحفة النظّار

في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

* * *

رأينا كيف أن سلطان مراكش كان داعية الى تدوين رحلات ابن بطوطة ، وكيف خصّه بكاتبه « ابن جُزَيّ » ليُملي عليه غرائب اخبـــاره وعجائب مشاهداته . على ان هذا الكاتب وقف من كلام الرحّالة موقفين متباينين ، فحينا كان يثبته بنصّه الصريح ، دون تبديل او تحريف ، واحياناً كان يصوغه بصنيع من إنشائه الخاص ، فاختلط الاسلوبان في تأدية المعاني . من هنا كان اختلاف النقاد في إرجـاع الكثير من التعابير الى منشئها ، فاذا بمصدر الصياغة في الغالب رهن ترجيح وتخمين ، فقالوا مثلاً : ان المقدمة والخاتمة وبعض مقدمات الأوصاف — ان لم تكن كلها — من انشاء ابن جزي ، وما تبقّى من انشاء ابن بطوطة .

واختُلف أيضاً في قيمة الكتاب التاريخية ، من حيث صحة بعض مرويّات الرحالة ، وحقيقة بعض أسفاره ، فذهب قوم الى الشك بأمانتها لكثرة ما أُضفى على المرويّات من غرابات ، ولما

أعوزَ الاسفار من براهين احياناً تثبت واقعها ، وذهب آخرون — ومنهم أهل الاستشراق — الى جعل الرحلة «أصدق ما للعرب والعجم في تقويم البلدان » ، والى الاقرار بما لأبي عبدالله من فضل على كتابة التاريخ والجغرافية .

وقد تنحصر أقوال الفئة الاولى -- الذاهبة الى الشك — في أمور جزئية ، منها ان الرحالة لم يبلغ الصين كما يقول ، وانه بالغ في سرد الخبر ، وأهمل الكثير من ذكر التفاصيل التي يقوم عليها وصف المدن والأمصار ، (كعدم تنويهه مثلاً بقلعة بعلبك عندما زار لبنان) . وهو لم يراع ، في نظرهم ، ضبط بعض الاسماء ، ولم يتّبع في سرد الاحداث ترتيباً معيناً ، ولا للتسلسل الزمني نهجاً معروفاً . ثم جاءت صور الاشياء مضطربة على لوحاته ، فاذا بأدب الرحلات عنده يفتقر تمام الافتقار الى صدق علمي ، ونقد تحليلي ، وبدون هذين العنصرين لا يستقيم تاريخ .

ومن أغرب الطرائف ان يكون ابن جزي نفسه — الى جانب ابن خلدون — في عداد من شك بتلك الامانة .

أما أصحاب الفئة الثانية — الذاهبين الى القول بصدق الرحلة — فقد أنصفوا ابن بطوطة في مجال الأمانة . فهؤلاء ، وقد اعتمدوا نسخة الكتاب الاصلية خرجوا من تحقيقاتهم الى صحة المعلومات مؤيدين آراءهم بما جاء لكبار المستشرقين في هذا الباب .

من جملة ردودهم على دعاة الشك والريبة ، ان المغالاة التي

تسود اقوال الرحالة ، انما هي صور غرائب الاولين الجاثمة في خياله ، ونتيجة انفعالات فورية جسّمها في ذهنه ذوق ساذج وطبع بسيط ، وحس سليم . ومتى كان المؤرخ خاضعاً للفطرة كان أميَل الى سرعة التصديق والانقياد منه الى المناقشة والتحليل .

واذا أُخذ على ابن بطوطة اضطراب السرد في تسلسل الحوادث والأزمان فلا ننسى ان أبا عبدالله تجشم الاسفار الشاقة في الزمن الذي ضاقت وسائل الانتقال معه ، وأمضّه من العيش سوء حال ، فكان عليه ان يتحين الفرص السانحة في تسياره لا أن يخضع التسيار لمخطط مدروس ومشيئة آمرة ، فاشتبهت المسالك أمام عينيه ، والتوت الدروب ، فصرف همه مع واقع الحال الى الناس لا الى الاماكن ، الى الناحية الاجتماعية لا الى ضبط التفاصيل ومراعاة الازمنة .

ولما رأى أهل الشرق اهتمام علماء الغرب برحلة ابن بطوطة ، عادوا اليها على أضواء جديدة ، فتبين لهم ان ما فيها من مبالغات وتحريف مصدره كثرة الاسفار وبُعد ما بينها وبين عهد التدوين .

ومهما يكن من أمر الرحالة المغربي في مجال الصحة والخطأ ، فانه يقاس بالنسبة الى عصره ومقوّماته لا بالنسبة الى عصرنا وما أخضع لعلمائه من مؤهلات في جبه الآفاق وارتياد المجاهل . وبكثير من الانصاف نقول : ان ابن بطوطة لم يقم بناءه التاريخي الجغرافي على الفكر المحض ، شأن كبار المؤرخين

والجغرافيين ، بل كان رحالة واسع الادراك ، راغباً في اقتحام الجدّة واكتناه المغلق ، يقوده عقله الى المتباعد من الاقاليم ، والمتباين من الشعوب ، فيعود بالاعجاب البسيط الساذج ، يصوره بطرافة ويرويه بدقة وتفكهة .

لقد عناه من مشاهداته ، النواحي البشرية والاجتماعية والفردية ، لا مظاهر الأمصار والأقطار .

أما الطريقة التي اتبعها في التدوين ، وما طرأ على الاملاء من مشاركة ، فمن الصعب ان ترتفع بالاسلوب الى النمط العالي والتنسيق المدروس .

ومع هذا فستظل رحلة ابن بطوطة مصدراً كبيراً من مصادر علمي التاريخ والجغرافية في القرون الوسطى ، لا سيما من الناحيتين السياسية والاجتماعية . حسبه أنه أول من أجلى أسرار الأمم وأحوالها ، وكشف عن الكثير من مخبآتها . ويكفيه ما جاء لكبار المستشرقين من أقوال فيه ، وقد أحلّوه المرتبة اللائقة به ، بعد ان تحققوا بأنفسهم — وقد طافوا بالأمكنة التي عرفها — من مجهوده الجبار .

مختـارات

لابن بطوطـة

* * *

بعيد خروجه من طنجه

فوصلت مدينة تِلمِسان ، وسلطانها يومئذٍ ابو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يَغمُراسن بن زيّان ، ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان ابي يحي ، رحمه الله ، وهما قاضي الأنكحة بمدينـة تونس ابو عبدالله محمد بن ابي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالح ابو عبدالله محمد بن الحسين بن عبدالله القرشي الزَبيديّ ، وهو احد الفضلاء ، وفاته عام اربعين[١] . وفي يوم وصولي الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار عليّ بعض الاخوان بمرافقتهما . فاستخرت الله تعالى في ذلك ، وأقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء مآربي ، وخرجت أجدّ السير في آثارهما. فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها ، وذلك في إبّان القيظ . فلحق الفقيهين مرض ، أقمنا بسببه

(١) أي : سبعمائة وأربعين .

عشراً . ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما ، فأقمنا ببعض المياه ، على مسافة اربعة اميال من مليانة ثلاثاً . وقضى القاضي نحبه ضُحى اليوم الرابع . فعاد ابنه ابو الطيِّب ، ورفيقُه ابو عبدالله الزبيدي ، الى مليانة فقبروه بها. وتركتهم هناك وارتحلت مع رِفقةٍ من تجار تونس، منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العدولي ، ومحمد بن الحجر .

ابن بطوطة في بلاد مصر

ثم سافرت في ارض رملة الى مدينة دمياط . وهي مدينة فسيحة الاقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة في كل حسن بنصيب . وهي على شاطىء النيل . واهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء . وكثير من دورها بها دركات يُنزل فيها الى النيل . وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر في المراكب ، وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار . ولهذا يقال في دمياط : « سورها حلواء وكلابها غنم » واذا دخلها احد لم يكن سبيل الي الخروج عنها الا بطابع الوالي . فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد (ورق) يستظهر به لحراس بابها. وغيرهم يُطبع على ذراعه فيستظهر به .

والطير البحري ، في هذه المدينة ، كثير متناهي السمن . وبها الالبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم ، وطيب المذاق . وبها الحوت البوري (السمك المعروف) يُحمل منها الى الشام وبلاد الروم (آسيا الصغرى) ومصر .

وبها (اي بقطيا) تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش امتعتهم، ويبحث عما لديهم اشد البحث . وفيها الدواوين، والعمال، والكتّاب، والشهود . ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها احد الى الشام الا ببراءة من مصر، ولا الى مصر الا ببراءة من الشام، احتياطاً على اموال الناس وتوقّياً من الجواسيس العراقيين . وطريقها من ضمان العرب قد وُكّلوا بحفظه . فاذا كان الليل، مسحوا على الرمل لا يبقى به اثر . ثم يأتي الامير صباحاً، فينظر الى الرمل، فان وجد به اثرا، طلب العرب باحضار مؤثره . فيذهبون في طلبه، فلا يفوتهم، فيأتون به الامير، فيعاقبه بما شاء .

ابن بطوطة في لبنان

في صور

ومدينة صور هي التي يُضرَب بها المثل في الحصانة والمنعة، لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، ولها بابان : احدهما للبر، والثاني للبحر . ولبابها الذي يشرَع للبر اربعة فصلان كلها في ستائر محيطة بالباب . واما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين . وبناؤها ليس في بلاد الدنيا اعجب ولا اغرب شأناً منه، لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سُورٌ تدخل السفن تحت السور، وترسو هناك .

في صيدا

ثم سافرت منها الى مدينة صيدا . وهي على ساحل البحر، حسنة، كثيرة الفواكه، يُحمَل منها التين، والزبيب، والزيت الى بلاد مصر . نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الاخلاق، كريم النفس .

في بيروت

ثم سرنا الى مدينة بيروت . وهي صغيرة، حسنة الاسواق . وجامعها بديع الحسن . وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد .

في طرابلس

ثم وصلت الى مدينة طرابلس . وهي احدى قواعد الشام، وبلدانها الضِّخام . تخترقها الانهار، وتحفها البساتين والاشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميقة، والبرّ بخيراته المقيمة . ولها الاسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها . وهي حديثة البناء . واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر، وتملكها الروم زماناً . فلما استرجعها الملك الطاهر، خَرِبَت واتُّخذت هذه الحديثة .

وبهذه المدينة نحو اربعين من امراء الاتراك . واميرها طَيلان الحاجب، المعروف بملك الامراء، ومسكِنه منها

بالدار المعروفة بدار السعـادة . ومن عوائده انـه يركب في كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الامراء والعساكر ، ويخرج الى ظـاهر المدينة . فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ، ترجّل الامراء ، ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديـه حتى يدخل منزله وينصرفون . وتُضرب الطبلخانة[١] عند دار كل أمير منهم ، بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل .

وبهذه المدينة حمّامات حسان ، منها حمّام القاضي القرمي ، وحمام سندمور .

وكان سندمور أمير هذه المدينة ، ويُذكر عنه أخبار كثيرة الشدة على اهل الجنايات ، منها ان امرأة شكت اليه بان أحد مماليكه الخواص تعدّى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه . ولم تكن لها بيّنة ، فأمر به فوُسِّط[٢] ، فخرج اللبن من مصرانه .

في جبل لبنان

وسافرت الى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا . فيه اصناف الفواكه ، وعيون الماء ، والظلال الوافرة . ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى ، والزهّاد ، والصالحين . وهو شهير بذلك ، ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

(١) الطبلخانة : الموسيقى العسكرية .

(٢) وسط : ضرب في وسطه .

في بعلبك

ثم وصلنـا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك . وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشـام ، تُحدق بها البساتين الشريفة ، والجنّات المنيفة . وتخترق ارضها الأنهار الجـارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية . وبها من حب الملوك[١] ما ليس في سواها . وبها يُصنع الدبس المنسوب اليها ، وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة[٢] يضعونها فيه ، فيجمُد ، وتُكسر القُلّة[٣] التي يكون بهـا ، فيبقى قطعة واحدة . وتُصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمون حلواءه بـ « الملبن » ، ويسمونها ايضاً « بجلد الفرس » . وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمُجِدّ .

ويُصنع ببعلبك الثياب المنسوب اليها ... ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد . وهم يسمون الصحاف بـ « الدسوت » . وربما صنعوا الصحفة ، وصنعوا صحفة أخرى تسعها في جوفها الى ان يبلغوا العشرة ، يخيل لرائيها انها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق ، يصنعون منها عشرة ، واحدة في جوف واحدة . ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل

(١) حب الملوك : نوع من الكرز .

(٢) التربة التي نسميها اليوم « الحوارة » .

(٣) القلة : الجرة الكبيرة .

في حزامه . واذا حضر عشاء مع اصحابه ، اخرج ذلك ، فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعاً .

في دمشق

ا – الجامع الأموي : وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً . ولا يُعلمُ له نظير ولا يوجد له شبيه . وكان الذي تولى بناءَه وإتقانه امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجَّه الى ملك الروم بقسطنطينيَّة يأمره ان يبعث اليه الصُنَّاع ، فبعث اليه اثني عشر الف صانع . وكان موضع المسجد كنيسة . فلما افتتح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد من احدى جهاتها بالسيف ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، ودخل ابو عبيدة بن الجراح من الجهة الغربية صلحاً ، فانتهى الى نصف الكنيسة . فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عَنوةً مسجداً ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة . فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد ، طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عِوَض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم .

وزُيِّن هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الأصبغة الغريبة الحسن . وذرع[1] المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة ، وهي ثلاثمائة ذراع .

---

(١) الذرع : الطول .

وعرضه من القبلة الى الجوف مائةٌ وخمسٌ وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع . وعدد شمسات الزجاج الملوّنة التي فيه أربعٌ وسبعون .

ب – جبر الخواطر : مررت يوماً ببعض أزقَّة دمشق ، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفةٌ من الفخار الصيني ، وهم يسمونه « الصحن » فتكسرت ، واجتمع عليه الناس . فقال له بعضهم : «اجمع شَقَفَها ، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني» . فجمعها وذهب الرجل معه اليه ، فأراه اياها . فدفع له ما اشترى به مثل ذاك الصحن . وهذا من احسن الاعمال . فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن ، او ينهره . وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك . فكان هذا الموقف جبراً للقلوب . جزى الله خيراً من تسامت همَّته في الخير الى مثل هذا .

في العراق : مدينة الكوفة

وهي احدى أمّهات البلاد العراقية ، المتميّزة فيها بفضل المزيّة ، مثوى[1] الصحابة[2] والتابعين[3] ، ومنزل العلماء والصالحين ، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين . إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها

---

(١) المثوى : المنزل ، القبر .
(٢) الصحابة : من رافقوا النبي طويلا .
(٣) التابعون : من لقوا الصحابة وماتوا مسلمين .

وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فانهم يقطعون طريقها
ولا سور عيها . وبناؤها بالآجر[١] واسواقها حسان ، واكثر ما
يباع فيها التمر والسمك. وجامعها الأعظم جامع كبير شريف ،
بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت
قطعاً ووُضع بعضها على بعض وأُفرغت بالرصاص ، وهي مفرطة
الطول . وبهذا المسجد آثارٌ كريمة ، فمنها بيت إزاء المحراب عن
يمين مُستقبِل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مُصلى
بذلك الموضع . وعلى مقرُبة منه محراب محلّق عليه بأعواد
الساج[٢] مرتفع ، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
وهنالك ضربه الشقيّ ابن ملجم[٣]. والناس يقصدون الصلاة به.

في الخليج الفارسي : ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل
الوادي العظيم .فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليه القوارب
الكثيره فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف .ويجعل
الغواص على وجهه ، مهما أراد أن يغوص ، شيئاً يكسوه منعظم
الغَيلم ، وهي السلحفاة ، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه

(١) الآجر : الطين المقسّى او القرميد .
(٢) الساج : شجر صلب الخشب .
(٣) ابن ملجم : الخارجي الذي قتل علياً .

المقراض[١] ، يشده على أنفه[٢] ، ثم يربط حبلاً في وسطه
ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء ، فمنهم من يصبر الساعة او
الساعتين فما دون ذلك[٣]. فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف
هنالك فيما بين الأحجار الصغار مُثبتاً في الرمل ، فيقتلعه بيده
او يقطعه بحديدة عنده مُعدّةٍ لذلك ، ويجعلها في مخلاة جلد
مَنوطة[٤] بعنقه . فاذا ضاق نَفَسُه حرّك الحبل ، فيُحس به
الرجل الممسك للحبل[٥] على الساحل فيرفعه الى القارب، فتؤخذ
منه المخلاة ويُفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع
بحديدة . فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر[٦] ، فيجمع
جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه ، والباقي يشتريه
التجار الحاضرون بتلك القوارب ، واكثرهم يكون له الدَّين على
الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه .

(١) المقراض : ما يقطع به الثوب .
(٢) ويسمون هذا الملقط اليوم : الفطام .
(٣) وفي هذا كثير من المبالغة . ويرجح العارفون ان اقصى مدة يمكن ان يقضيها الغواص في الماء هي سبع دقائق .
(٤) المنوطة : المعلقة .
(٥) ويعرف اليوم بـ « السيّب » .
(٦) والحقيقة ان اللؤلؤة تتكوّن في داخل الصدفة وهي بعد في البحر .

ذكر اهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم : « ما الخبر ؟ » فأخبروا ان كاهناً من الهنود مات ، وأججت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا ، جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت ، في تلك البلاد ، أرى المرأة من كفار الهنود متزينة ، راكبة ، والناس يتبعونها ، من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود . واذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذنوا السلطان في إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة ، أكثر سكانها الكفّار ، تُعرف « بأمجرَي » ، وأميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات. فاتفقن على إحراق أنفسهنّ . . . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمرٌ مندوبٌ اليه[1] غير واجب . لكن من أحرقت نفسها ، بعد زوجها ، أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق

(١) مرغوب فيه ، مستحب .

نفسها ، لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث ، اللائي ذكرناهنّ ، على إحراق أنفسهنّ ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب ، وأكل وشرب ، كأنهن يودّعن الدنيا ، ويأتي اليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع ، أُتيَت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهي متزينة ، متعطرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها . والبراهمة يحفّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار . وكل إنسان من الكفار يقول لها : « أبلغي السلام الى أبي ، أو أخي ، أو أمي ، أو صاحبي » . وهي تقول « نعم » . وتضحك اليهم .

وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهنّ في الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا الى موضع مظلم ، كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم ، أعاذنا الله منها .

ولما وصلتُ الى تلك القباب ، نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه ، وجرّدنَ ما عليهن من ثياب وحلي ، فتصدقن به . واتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن ، غير مخيط . فربطت بعضه

على وسطها ، وبعضه على رأسها ، وكتفيها. والنيران قد أضرمت
على قرب من ذلك الصهريج ، في موضع منخفض ، وصُب عليهن
روغن كنجت ، وهو زيت الجلجلان (السمسم) فزاد في اشتعالها.
وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ،
ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار. وأهل الأطبال والأبواق
وقوف ينتظرون مجيء المرأة . وقد حجبت النار بملحفة يمسكها
الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر اليها . فرأيت إحداهن ، لما
وصلت الى تلك الملحفة ، نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت
لهم : « مارامیترساني أزاطش من میدانم او أطش است رها كني
مار » وهي تضحك . ومعنى هذا الكلام : « أبالنار تخوّفونني ؟
أنا أعلم أنها نار محرقة » . ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار،
ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار
والابواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، لئلا
تتحرك . وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك
كدت أسقط عن فرسي ، لولا أصحابي تداركوني بالماء ، فغسلوا
وجهي ، وانصرفت .

ذكر سوق المغنين بدولة أباد

وبمدينة دولة أباد سوق للمغنين والمغنيات، يسمى سوق طرب
آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها . . فيه الدكاكين الكثيرة كل
دكان له باب يفضي الى دار صاحبه ، وللدار باب سوى ذلك ،
والحانوت مزين بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه

المغنية او ترقد ، وهي متزينة بأنواع الحلي ، وجواريها يحركن
مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس
فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس ، وبين يديه
خدّامه ومماليكه . وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين
يديه ويرقصن الى وقت المغرب ، ثم ينصرف .

ذكر السحرة الجوكية

بعث السلطان محمد شاه الى ابن بطوطة يوماً ، فدخل عليه
فوجد عنده رجلين يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما ، وأمره
السلطان بالجلوس فجلس ، فقال لهما : ان هذا الشخص من بلاد
بعيدة ، فأرياه من غريب صنعكما ، وصدعا بأمره .

« فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الارض، حتى صار في الهواء
فوقنا متربّعاً ، فعجبت منه وأدركني الخوف ، فسقطت الى
الأرض . فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت،
وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلاً له فضرب بها الأرض
كالمغتاظ ، فصعدت الى ان علت فوق عنق المتربع ، وجعلت
تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً ، حتى جلس معنا . . .
فقال لي السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال:
لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت .
فانصرفت عنه ، وأصابني الخفقان ومرضت حتى أمر لي بشربة
أذهبت ذلك عني .

واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع، والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الأرض، ويخترقه النهر المعروف «بآب حيات» ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق، ويمر في وسط الصين مسير ستة أشهر الى ان ينتهي الى صين الصين، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر، إلا ان هذا أكثر عمارة وعليه السواقي الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير والاعناب والاجاص، وكل ما ببلادنا من الفواكه، فان بها ما هو مثله وأحسن منه، والقمح كثيراً جداً ولم أرَ قمحاً أطيب منه وكذلك العدس والحمص.

الفخار الصيني

أما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان؛ وهو من تراب جبال هناك توقد فيه النار كالفحم ويضيفون عليه حجارة عندهم، ويوقدون النار عليها ثلاثة ايام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً. ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمّر شهراً كاملا ولا يزاد على ذلك، والرديء ما خمّر عشرة ايام، وهو هنالك بقيمة الفخار في بلادنا او ارخص ثمناً. ويحمل الى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب، وهو أجمل أنواع الفخار.

ورق النقد

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسكبونه قطعاً كما ذكرناه. وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان. وتسمى الخمس والعشرين قطعة منها بالِشْت، وهي بمعنى الدينار عندنا. واذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان. وقد وُكّل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة او دينار ويريد شراء شيء لم يؤخذ منه، ولا يلتفت اليه حتى يصرفه ويشتري به ما أراد.

مهارة الصين في التصوير

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، وقد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. أما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه، لا من الروم ولا ممن سواهم فان لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم في ذلك، أنني ما دخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت اليها، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة على الحيطان والورق، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت الى

مدينة السلطان ، فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن في زي العراقيين ، فلما عدت من القصر عشية ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في ورق ألصقوه بالحائط . فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه . وذكر لي ان السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا الى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر . وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم ، وتنتهي حالهم في ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبُحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ .

مراقبة السفن

وعادة أهل الصين اذا أراد مركب من مراكبهم السفر ، صعد اليه صاحب البحر وكتابه ، وكتبوا من يسافر فيه من الجند والخدام والملاحين ، وحينئذ يباح لهم السفر ، فاذا عاد المركب الى الصين ، صعدوا اليه أيضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا صاحب المركب به ، فإما ان يأتي ببرهان على موته او فراره او غير ذلك مما يحدث له ، وإلا أخذ فيه .

فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع ، قليلها وكثيرها ، ثم يُنزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم ، فان عثروا

على سلعة ، قد كُتمت عنهم عاد المركب بجميع ما فيه حالاً للمخزن . وذلك نوع من الظلم ما رأيته إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ، وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها ، أُغرم أحد عشر مغرماً ، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

المشعوذون في بلاد الصين

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة ، فقال له الأمير : «أرنا من عجائبك» . فأخذ كُرة خشب لها ثَقب فيها سيور طوال ، فرمى بها الى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار . ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير ، أمر متعلّماً له ، فتعلّق به ، وصعد في الهواء الى ان غاب عن أبصارنا . فدعاه فلم يُجبه ثلاثاً فأخذ سكيناً بيده كالمغتاظ وتعلّق بالسير الى ان غاب أيضاً ، ثم رمى بيد الصبي الأرض . ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم رمى برأسه ثم هبط وهو ينفخ ، وثيابه ملطّخة بالدم . فقبّل الأرض بين يدي الأمير ، وكلّمه بالصيني . وأمر له الأمير بشيء . ثم انه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض ، وركضه برجله ، فقام سويّاً . فعجبت منه ، وأصابني خفقان القلب ، فسقوني ما أذهب عني ما وجدت . وكان القاضي فخر الدين الى جانبي ، فقال لي : والله ما كان من صعود ، ولا نزول ، ولا قطع عضو . وإنما ذلك شعوذة .

أَمين الريحاني

١٨٧٦ – ١٩٤٠

* * *

الرحّالة اللبناني

على مقربة من شمالي بيروت ، تنحرف عن الشاطىء اللبناني صُعُداً نحو الجبل ، فلا تلبث ان تعرّج على درب عصبية المزاج ، ضيقة المسالك ، تحفّ بجوانبها الخضرة والطيوب والصنوبرات العتاق ، وتقوم البيوت الوادعة المعصَّبة بالآجر الأحمر ، كأنها بقايا تلفّتنا الى العلاء ، ويجانبها الأبنية الحديثة ، يشدها الحجر الى الأرض رغم تعاليها .

واذا ما توغَّلت يساراً في هذه الدرب المؤنسة التي تتعاقب عليها ، رغم قصرها ، القرى الحمراء ، بقباب كنائسها ، رأيت ان أغرب ما تطالعك به هذه الفِلذة من لبنان بمنعرجاتها الكثيرة ، انها كلما التوت بك مرة – ومـا أدنى مدى التواآتها – بدَّلت الكون أمام ناظريك بسرعة مدهشة ، فالجمال هناك خاطف ، لا

يمن ، او وليد اللحظات العابرات ، فهو لا يكاد يبرز لك بحلّة ، حتى يُطِلَّ عليك بحلة ثانية ، فأنت حينا بحيرة شبه سهل ترتاح الرؤية الى شعابه ، وحينـاً بقرب وادٍ مطمئنّ ينساب بدِعَةٍ ودَلّ ، وحيناً بازاء غور سحيق تدب المهابة على جوانبه ، فتدانيه العين على حذر .

ولا تزال الطبيعة تداعب حسَّك بمثل الخدر حتى تشرف بك على منفسح ينحدر بنظرك الى المنعطفات الملوَّنة ويبلغ به البحر ، وقد خلته منك على مرمى ذراع ، فتدرك إذ ذاك أنك قد بلغت الفريكة الموزَّعة على التلال كأنها زينة عروس حسناء بعثرتها يد كعاب صناع .

وتلج بيتاً أبيض ، مُدَّ على المنعطف ، كأنه حدٌّ بين فريكتين أو قصر صغير – في البلدة الصغيرة – تركته هناك إمارة كبيرة ، لم تقو يد الزمان على محوها ، وقد صدمها وجـه الأمين المنحوت فوق الباب الكبير ، بعبارته المأثورة : «قُلْ كلمتك وامشِ» .(١)

Georges Ghorayeb, au cours d'une séance, avait ainsi défini le village de Freyké, d'où est originaire Amine Rihani.

«A proximité du Nord de Beyrouth éléve-toi au-dessus du rivage libanais, vers la montagne. Tu ne tarderas pas à «clocher» vers un chemin au tracé nerveux, aux tournants étroits, bordé de verdure, d'essences et de pins antiques.

«Des maisons tranquilles s'y élèvent, coiffées de tuiles rouges; auprès d'elles, les nouvelles constructions sont tirées à terre par la pierre, malgré leur élévation.

«Si tu te penches vers la gauche, dans cette route familière,

يجثم « قصر الريحان » من وادي الفريكة في منطلقه ، وقد
انتصبت وراءه الجبال بسدودها الشامخة ، لتفسح أمامه من البعد
ما يشاء . من على شرفته الواسعة — حيث كان يجثو الأمين ليتلو
« نجواه » ، الشبيهة بالصلاة ، باتجاه صنين — ترى معجزة الألوهة
في تشابك الأوداء وتداخل الرواسي ، ترى نموذجاً من جنون
العبقريات في غرائبها .

---

où, malgré la brièveté de son cours, des villages rouges se suivent, sous le clocher de leurs églises, tu verras que le plus étrange de ce que tu peux découvrir dans cette portion du Liban, en ses nombreux détours, réside dans le fait que l'existence se modifie avec une vitesse stupéfiante, sous tes regards, à chaque fois que se contorsionne la route. Ce qui arrive très souvent.

«La beauté des lieux est captivante; elle naît de la variété des aspects que tu admires un instant, pour les voir aussitôt remplacés par d'autres aussi séduisants.

«Parfois c'est presque un plateau qui te repose la vue.

«Aussitôt après, c'est une vallée paisible qui s'entrouvre avec une modeste coquetterie.

«Parfois, c'est un précipice profond dont les rebords provoquent en toi une grande frayeur; ton œil ne s'y risque qu'avec précaution.

«La nature ne cesse de proposer des énigmes à ta sensibilité, avec la même prudence, jusqu'à ce que tu gagnes un espace qui dirige ton regard vers des sommets colorés.

«Tu aperçois la mer qui t'apparaît éloignée d'une toise.

«Et c'est alors, révélé, le site de Freyké, répandu sur ses collines comme la parure d'une nouvelle mariée, agencée par un maître artisan.

ها هنا يتضح لنا في أي حضن من أحضان الطبيعة أبصر
الريحاني النور ، وبعهدة أي عرس من أعراسها نشأ ، فاذا بأدبه
صدى الأنغام ، ووليد الأمداء ، وانعكاس الآفاق ، ورجع
اللجج ، واذا للفريكة في ذلك الأدب غير خطرة وارتياد .

وتشاء يد الأخوة ان تستبقي على صورة الشقيق الغائب ، في
البيت الذي أظله ، فحافظت على أطيافه وأخيلته فيه ؛ فهنا
غرفة الأديب الرحالة ، بسريرها النحاسي الضخم ، ومكتبتها
الشاحبة ، وكرسيها الأغبر ، وبقاياها الحبيبة ، وهناك متحف
يجمع غبار الأمجاد في خزائنه وعلى جدرانه ، وهنالك نتف في
الداخل والخارج ، تكاد ان لمستها تنبض تحت اصابعك .

وها هنا ، في الفريكة ، في الرابع والعشرين من شهر تشرين
الثاني عام ١٨٧٦ ، وفي البيت الذي سيطلع علماً ، زغردت نساء

«Tu y aperçois une maison blanche posée sur une hauteur comme une limite entre deux Freyké ou comme un petit palais abandonné dans cette petite localité par une grande principauté que la main du temps n'a pas réussi à faire disparaître.

«Le visage d'Amine Rihani est sculpté au-dessus de la porte, accompagné de l'inscription connue :

«Dis ton propos et marche ! »

Ce texte en prose est aussi poétique que les meilleurs vers consacrés à des paysages célèbres.

Victor HAKIM
La Revue du Liban
No. 378, 26 Mars 1966

القرية ، وقد منّ الله على فارس الريحاني بمولوده البكر ، فأسماه « أميناً » .

وقد كانت الشاوية مسقط رأس الوالد . يقول الأمين في قلب لبنان : « ما الذي حمل والدي على نقل بيته الى الفريكة ؟ يظهر ان التنقل من الصفات اللازمة لبيت الريحاني . منذ ثلاثمائة سنة ويزيد نقل جد العائلة من بجّه في جبيل الى بيت شباب. وبعدها بمئة سنة نقل الخوري (ثم المطران باسيل عبد الأحد سعاده البجّاني — إذ لم يكن محظوراً في تلك الايام سيامة الكاهن المتزوج أسقفاً —) من بيت شباب الى الشاوية . فبني لنفسه قلّاية. وكان الآس الذي يدعى في هذا الجبل « الريحان » يكثر في تلك الناحية ، فقال الناس « قلّاية الريحان » . ثم نسبنا اليه ، فقالوا : « بيت الريحاني » وهذه بيوتنا لا تزال قائمة تحت بيت شباب ، ولكنها مهجورة ، هي اليوم خبر بعد عين .

أما السبب في انتقال الوالد الى الفريكة فهو الحب . كان والدي شريكاً لخاله أمين هاشم في معمل الحرير بالفريكة . فاضطر ان يقضي معظم ايامه فيها . وقد كان يجتمع في بيت خاله بأنيسة جفّال طعمه من قرنة الحمراء ، وهي في بيت عمتها امرأة خال أبي. فأحبّ فارس أنيسة ،وأحبت أنيسة فارساً ، فانغرس الحب في قلبيهما ، ثم نوّر بالزواج ، وكنت أنا بكرهما الغالي ، أطال الله عمري ، وجمل أحوالي . »

وككل لبناني في طفولته ، كانت مدرسة القرية مأوى

الأمين الصغير ، وهي في ذلك الحين ضمن دير مار مارون المتواضع المحاذي لمنزل والديه .

لم ينس الريحاني مدرسته الأولى يوم شك الريشة في الأبعاد . يقول في صديقه ورفيقه الحاج أبو يسوع : « قرأنا معاً كراسة الأبجدية والمزمور الاول من مزامير داود . قرأناهما على الشدياق متى ، تحت الجوزة ، في الساحة السفلى ، يوم كان والدي مقيماً ببيت شباب ، يدير معامل الحرير فيها . أظنك تذكر القول المأثور : من علمني حرفاً كنت له عبداً . إذن للشدياق متى ، رحمه الله ، عبيد كثيرون .

ترحّمت على الشدياق متى ، ولكن أبا يسوع لا يشاركني في هذا الترحّم . فقد كان بعض التلاميذ يقولون يومئذٍ في معلمهم الشدياق : ضاعت السبتيّة فيه . والسبتيّة ، طالت ايامك ، أرغفة من الخبز يحملها كل تلميذ يوم السبت الى المعلّم متى لقاء التعليم ، والحاج ابو يسوع «لا» يزال يردد هذه الكلمات : ضاعت السبتية فيه . ذلك لأنه، على ما يرى ، ما أذكى فيه شعلة النبوغ كما أذكاها في سواه ، فيّ مثلاً ، وكثيراً ما يقول مسائلاً : ما سبب الفرق بيني وبين أمين ؟ قد لفظنا الحرف معاً في مدرسة الشدياق متى تحت الجوزة ، امام كنيسة سيدة الجوزة . وأين هو اليوم وأين أنا ؟ هو الفيلسوف وأنا ، ما أنا ؟ فاخوري يلعب بالتراب . »

ويخبرنا صاحب « قلب لبنان » أن أستاذه كثيراً ما كان

ينتقل بتلامذته الصغار، في الصحو الدافىء، الى فيء تلك الجوزة الضخمة حيث كانت تداعب وجهه النسيمات العليلة، فيغفو.

وفي العام ١٨٨٦ التحق الصبي الناشىء بمدرسة نعوم المكرزل المتنقّلة. تلك المدرسة التي يقول فيها: « وقد كانت مدرسة نعوم، على قصر مدتها، كثيرة التنقّل، فقد أنشأها في عين عار، ثم نقلها بعد سنة الى دير ما جرجس، ومن الدير بعد نصف سنة الى الفريكة، وبعد ذلك ببضعة أشهر انتقلت الى رحمته تعالى. »

وككل صبيّ كان للأمين بطولات في عهد الطفولة. أشهرها تلك التي ذكرها في قلب لبنان اذ قال: « وفي تلك الايام النضيّة السعيدة، أيام القوافل المحمّلة حريراً، العائدة من بيروت بأحمال من المجيديّات – يعدّها الاولاد ويصفّونها في الصناديق – كان لأحد اصحاب المعمل ولد صغير، في الربيع الرابع من عمره، رأى بغلاً ذات يوم مربوطاً بشجرة التوت أمام الباب، فحدثته نفسه بالفروسية. دنا من البغل وفك رسنه، ثم صعد الى الحافّة، ومنها الى ظهره. مشى البغل متباطئاً، متحققاً أمره، فنتل الصغير الرسن، ففهم البغل معنى ذلك، وراح يخفّ، ثم يعدو، فتقلقل الفارس الصغير، وهوى الى الأرض. في تلك الفينة، وهو بين الأرض وجلال البغل، رآه احد الجيران، فصاح مستنجداً بمار انطونيوس شفيع الاولاد، ومار شلّيطا شفيع الدواب، وهرع الى الصغير فلمّه، وحمله دامي الرأس الى أمه.

ما كان الجرح مهمّاً، فما عتّم ان التأم، ولكن الولد أصيب بعد ايام بمرض في أذنه، شديد الألم، كثير الصديد، فحُمل الى طبيب برّمانا المشهور في تلك الأيام، الدكتور بشاره منسّى، فوصف له دواءً وحقنة.

كانت تلك الحقنة تزعج الصغير، وما أسرعت في الشفاء. فنتلها ذات يوم من يد الخادمة، وهي تحقن أذنه، وضربها بها على رأسها فانكسرت.

على أثر ذلك، كان لا بد للأم التقيّة – اجابة لنصيحة رجل من غرزوز – ان تلجأ الى دواء غير دواء الأطباء. الى طوق فضيّ ألبسته « أميناً »، وقد ارسل به اليها الغرزوزي من دير كفيفان. وما اكتفت الأم بذلك بل ذهبت بابنها الى هذا القديس الشافي حاملة اليه « رطل شمع وإقّة بخور »، فكانت رحلة الأمين الأولى وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره بعد.

« جاء اليوم السعيد، يوم السفر، فارتدت « الست » فستاناً من الأطلس الأسود، واعتصبت بعصابة من جنسه ولونه، ثم تقلّدت ساعتها في سلسلة من الذهب تدلّت على صدرها. ولبس « الخواجا » سراويل مفرسخة، من الجوخ الكحلي اللون، شدّها بمنطقة عريضة من الحرير المخطط يختفي نصفها من وراء ومن الجانبين، تحت كُبران مطرّز الاطراف كجيبي السراويل، وتبدو من أمام كالهامش الفخم لصدرية سوداء، ذات عشرين

زراً مزرورة في أسفلها وأعلاها ليظهر من خلال وسطها القميص الحرير ، الملتئم لونه الأصفر بلون المنطقة .

أما صغيرهما المطوّق بطوق قديس كفيفان ، فقد كان يرفل في قمباز مخطط معصفر ، مشدود الوسط بمنطقة من طراز منطقة أبيه ، على رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء ، وفي رجليه حذاء لمّاع عراه من النحاس الأصفر ، وكان وهو يمشي يرمق ذلك الحذاء بعيني العجب والجذل . »

وفي ذلك العام مرّ قنصل فرنسا بعين عار ، فاختير الامين ، رغم حداثة سنه ، لالقاء كلمة الترحيب ، فاعجب القنصل بجرأته الباكرة ، وعرض على والده إرساله الى باريس لتلقّي العلوم فيها . وفي ذلك يقول الامين : « اذكر من أيامها — (مدرسة نعوم) — في عين عار يوماً مجيداً . فقد كان قنصل فرنسا ماراً بالبلدة في طريقه من بيروت الى مصيفه ببكفيا ، فخرج تلامذة المدرسة بأثواب العيد صفّاً مبهجاً وراء معلمهم نعوم ، يرحبون « بسعادة » القنصل في ساحة البلدة بين مزراب العين ومدخنة معمل الحرير .

وكان معلمنا ، غفر الله ذنوبه ، قد نظم في مدح القنصل ودولته قصيدة رنّانة ، فاختارني لالقائها . فالقيتها بلهجة أعجبت القنصل ، فخصّني بعطفه ووعد بأن يستصحبني عندما يعود في اخر الصيف الى بلاده لأتعلم في إحدى مدارسها . »
ثم يعلق الامين على هذا الحادث بقوله : « بعد هذا الفوز المبين

اعتراني شيء من الزهو فأثّر في دروسي وسلوكي . فقد كنت الاول في الصف ، فصرت دون ذلك بدرجات . وكنت العاقل الطائع البار ، فصرت كبير الرأس مشاكساً مشاغباً . ولا ازال اذكر قصاصاً « قاصّنيه المعلم نعوم ، وهو انه ضربني على رؤوس اناملي مجموعاً بعضها الى بعض عشر ضربات شديدات بالمسطرة .

وقد ثأرت من معلمي في دير مار جرجس ، فقد دعاني يوماً للّوح الاسود وقال : خذ الطبشورة . فوقفت امام اللوح والطبشورة بيدي أنتظر الاملاء. فقال : اكتب الحمار. فكتبت الحمار . فقال : اكتب امين . فكتبت نعوم . فضحك التلامذة، واستشاط نعوم غيظاً . ثم امرني ان اقف ووجهي الى الحائط عشر دقائق » .

والظاهر ان وعد القنصل الفرنسي لم يغر الريحاني الصغير ، اذ انه كان يفضل الذهاب الى نيويورك برفقة عمه واستاذه نعوم اللذين كانا يتأهبان للسفر اليها ، رغبة منهما في الاتجار بالحرير اللبناني . وقد تم له ذلك في صيف ١٨٨٨ . وفي السنة التالية التحق به والده بعد فشل تلك التجارة .

بقي رحالتنا في واشنطن احدى عشرة سنة تعلم في اثنائها اللغة الانكليزية عند راهبات المحبة في نيوبرغ، والتحق بمدرسة لفن التمثيل ، ثم واصل علومه في مدرسة ليلية ليتسنى له مساعدة ابيه نهاراً في تجارته . هذا بالاضافة الى المباشرة بدراسة الحقوق في جامعة نيويورك . على ان الامين سئم جو التجارة

هذا، ولم يشأ الاسهام الفعلي في جريدة الهدى التي كان قد انشأها نعوم المكرزل هناك ، فعاد الى الوطن عام ١٨٩٨ وهو يشكو اضطراباً في العافية – على ما يظن – وفي مدرسة قرنة شهوان التابعة لأبرشية قبرص المارونية راح يدرّس الانكليزية ، ويتعلم العربية – بعد ان كاد ينساها ، كما يقول – على يد الخوري بطرس البستاني . وفي نهاية هذا العام الدراسي رجع الى نيويورك ، ليمكث فيها خمس سنوات يحترف في اثنائها الأدب ويدرس اصول الرسم والتصوير بالمراسلة ، ويعود الى لبنان من جديد في العام ١٩٠٤ ويقيم فيه حتى عام ١٩١٠ . وقد تخللت هذه الاقامة رحلة الى مصر ، لمرافقة اخته المريضة سعدى ، فتعرف هناك الى كبار ادباء وادي النيل وكان موضوع حفاوتهم .

وعرفته الولايات المتحدة من العام ١٩١١ الى العام ١٩١٣ الذي اتمه في لبنان ، ثم رجع اليها في السنة ١٩١٤ التي اندلعت فيها الحرب الكونية . عندئذ بدأ نشاط الامين السياسي في مؤازرة الديموقراطية ومناصرة الحلفاء ومجاهدة الاتراك الذين هووا بنيرهم البغيض على كاهل بلاده . وكانت المكسيك مسرح نضاله فأخرجته حكومتها من البلاد ، فأمّ نيويورك حيث تزوج في العام ١٩١٦ من الرسامة الاميركية برتاكس ، الفائزة بجائزة معرض سان فرانسيسكو ، وسافر واياها الى اوروبة ، فزارا معاً روما وسائر عواصم الديموقراطية هناك ، على ان

هذا الزواج انتهى بالانفصال بعد مرور ثلاث وعشرين سنة ، ولم يرزق الامين اولاداً .

وفي العام ١٩١٧ عاد الى نيويورك يعمل في سبيل مساعدة أهل وطنه إبان المحنة . وكان ممّا لجأ اليه في سبيل تخفيف الكارثة عن كواهلهم ، دعوة عامة الى الصيام يوماً واحداً في السنة ، وإرسال ما يتوفر من المال بذلك ، الى الجائعين من ابناء لبنان .

لقد وعى الريحاني من أحداث الحرب الكونية ما جعله ، بعد خمود نيرانها ، يطل على العالم العربي بقضايا تحريرية ومناهج للاصلاح جديدة . فاذا بأسفاره تحمل بعد ذلك معنى للقومية هو نتيجة الاستنتاج والتجربة . مع العلم ان الدوافع الى الرحلات ازدحمت في صدره منذ نشأته الأولى كما رأينا . ولعل أبرز تلك الدوافع نزوع طبيعي الى السياحة والاستكشاف ، والانفتاح على الدنيا، ثم رغبة ملحّة في نشر آرائه القومية وتوحيد العالم العربي .

وكان ما أفاده في الولايات المتحدة ، من التواريخ الغربية – التي سيذكر اثنين منها – حول حضارة العرب ، الى جانب ما فقهه من كتب المشارقة في هذا المجال ، حافزاً اولياً للالتفات الى مطلع الشمس ، ومهمازاً لاقتحام مواطن العروبة غير مرة ، لاسيما بعد ان عرّف أبا العلاء الى الانكليز في ترجمته عام ١٩٢٢، وتأثر من ثورة الحسين عام ١٩١٥ بأكثر من عامل . فها هو في

العام ١٩٢٢ يهزّ الهمة الى مهبط النبوّة ، فيقوم بسياحته الكبرى في شبه الجزيرة العربية مستطلعاً احوالها ، متصلاً بحكامها ، عاملاً لخدمة القضية العربية ولنشر التفاهم بين ابناء العروبة ، على اختلاف بلدانهم ومذاهبهم ونزعاتهم ، فكان اول من قطع الطريق بالسيارة بين دمشق وبغداد .

يقول في « ملوك العرب » : « رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجلاّت الانكليزية ، والجرائد العربية ، فكنت اقوم فيما اكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب ، وتوقفت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في « الحمراء » في الغرفة التي كتب فيها واشنطن أرفين كتابه النفيس ، فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ، ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوّة . »

وفي لبنان ، وهو في غمرة التأليف ، ابعده الفرنسيون عن موطنه ، عام ١٩٣٣ على أثر خطابه « بين عهدين » فدام بعاده ثلاثة اشهر . ومما جاء في هذا الخطاب قوله :

« ... قد انتقلنا وما تغيّرنا ، الا اذا حسبنا الرجوع الى الوراء تقدّماً . من ظلم مختلّ الى ظلم منظم ، ومن ظلم يحمل النبوت والكرباج الى ظلم يحمل الدسائس والمعاهدات ، من استبداد يفرق ويسود لمجد الدولة الى استعباد يفرق ويسود للاستعمار . من عبد الحميد الى الانتداب ... ان خلاص

الانسان بيده ... انهضوا ينهض الله معكم ، فكروا بالانتاج قبل ان يهلككم الاستهلاك ... »

نرى بعد هذا السرد الخاطف لحياة الريحاني التي تقاسمتها الاسفار بلا هوادة ، ان حياته وزّعت على الآفاق ، وان كتبه كانت وليدة الاقطار المتعدّدة ، والامصار المختلفة .

ان ابن الروابي الخضر ، جار الازرق الممتد امام العين ، بغابره وآتيه ، وربيب الفريكة السمحاء ، يقتحم البحر القصيّ الحدود ، ويجبه الصحراء المترامية الاطراف ، يشدّه حيناً زيّ غربي ، وحيناً تلفّه عباءة ، وتغمر رأسه الاسمر كوفية بيضاء يعصبها عقال ، يومىء الى البعيد بأحلامه الكبار وآلامه الجسام ، فينصت الموج ، ويصيخ الرمل الى وقع هاجسه ، وكأنه على موعد مع القدر . حتى اذا كانت ليلة الجمعة في ١٣ ايلول من العام ١٩٤٠ خمدت تلك النفس التوّاقة الى الرواسي — قبل ان تنفض اليد من « قلب لبنان » — ولها من العمر اربع وستون سنة .

ورقد الامين « في ظل ثلاث سنديانات فتيات الى جانب الطريق » . وهو القائل : « ها هنا مدفون الوالد والوالدة ، والعمّ والعمّة ، والجدّ والجدّة . وها هنا في ظل هذه الثلاث السنديانات ، عند سفح هذه الرابية المكللة بالصنوبر الدائم الاخضرار ، اريد ان تتفيأ عظامي ابد الدهر . واني منذ الآن استنزل لعنة الله على من يقطع هذه الشجرات الثلاث المقدّسة

او يمسها بسوء . واسأله تعالى ان يسبغ الرحمة والنعمة على كل
من يعتني بها ، فيدفع عنها عاديات الزمان والفساد ، ويشدّها
لتنمو في جمالها وتدوم ، فتفرش ظلالها فوق المقبرة والكنيسة
ولكل من شاء الاستراحة من المارين .

أجل ، رقد الأمين حيث شاء ، بعد أن أشبع بحفلات
التكريم ، في المهاجر والاوطان ، وانطوى على غير بُعد في دنيا
العطاء الفكري ، فاذا بالمدارس والشوارع توسم باسمه ، وإذا
بالاوسمة تنهال عليه من كل صوب ، واذا بكتبه تترجم الى عدّة
لغات حيّة .

ولكي لا ننتهي – مع الأمين في حياته – على جرْس
موجع ، أود أن أذكّر القارىء أنه كان لهذا العظيم ، في ميدان
الحب ، جولات ، اختصرها بقوله : « لله من الأقدار ، فقد
عقدت العقدة الأولى في قلبي وأنا على صدر غرزوزية حسناء ،
في الخامسة من سني ، وعقدت العقدة الثانية وأنا الى جنب
غرزوزيّة فتّانة في نيويورك . وجاءت الغرزوزية الثالثة
ترافقني الى منتزه الرويس ، فذكّرت ، وأشجت .

ان في زاوية من زوايا القلب عقدتين ، إحداهما عقدت في
غرزوز منذ خمس وخمسين سنة ، والأخرى عقدت في نيويورك
بعد ذلك بعشر سنوات – (وقد سافرت الى البرازيل فماتت
غرقاً في الأمازون) – وكلتاهما لا تزال كما أرادتها أنامل العاقد ،
وثيقة طرية ناعمة عاطرة ، ومختومة بخاتم الحب الطاهر . »

حسب الريحاني ان يكون في حياته الشاقة الملأى ، صاحب
قلم ورسالة ؛ أشبع الأولى بالعنفوان ، وأمدّ الثانية بالأمانة .

لقد ظلّ ماشياً يقول كلمته ، حتى هوى ، وكأن شيئاً عن
الشمس قد مُسح . فيا للقرية المنسيّة وراء الهضبات والروابي
تمسي بفضل ريشة احد ابنائها محجّة ومزارا .

مؤلفات الريحاني في العربية

* * *

موجز تاريخ الثورة الفرنسية
المحالفة الثلاثية
ثلاث خطب
المكاري والكاهن
الريحانيات – جزآن
زنبقة الغور
خارج الحريم أو جهان
التطرّف والاصلاح
النكبات
+ ملوك العرب – جزآن
+ قلب العراق
+ تاريخ نجد الحديث
وفاء الزمان
أنتم الشعراء
فيصل الأول
+ قلب لبنان
+ المغرب الأقصى
سجلّ التوبة
هتاف الأودية
القوميات – جزآن
أدب وفن
وجوه شرقية وغربية
بذور للزارعين
رسائل امين الريحاني

مؤلفاته الانكليزية

* * *

رباعيات ابي العلاء المعري - ترجمة
المرّ واللّبان – شعر
لزومات ابي العلاء المعري - ترجمة
خالد – قصة فلسفية
جادة الرؤيا –
مقالات اجتماعية فلسفية
أنشودة الصوفيين – شعر
تحدر البلشفية –
نبذة في الحركات الشيوعية
حول الشواطىء العربية – رحلة
ابن سعود ونجد – رحلة
بلاد اليمن – رحلة

مؤلفات انكليزية غير مطبوعة

* * *

دروس في الف ليلة وليلة
العراق في عهد فيصل الأول
وجده – قصة
قبائل هنود الميّا في المكسيك

دراسات عن الريحاني

* * *

المطالعات الريحانية : لمحمد حسين آل كاشف الغطاء
الريحاني في مصر : لمصطفى الرافعي
الريحاني في العراق : رفائيل بطي

امين الريحاني : البرت الريحاني

امين الريحاني – الرجل الأديب : جميل جبر

امين الريحاني : سلسلة المناهل

امين الريحاني والديمقراطية : رئيف خوري

امين الريحاني : سامي الكيّالي

امين الريحاني : مارون عبود

امين الريحاني : حارث طه الراوي

امين الريحاني في أدب الرحلة : حكمت صبّاغ – أطروحة

امين الريحاني في اعلام الفكر العربي : محمد علي موسى

امين الريحاني الرجل والأثر : نجاح ابو علي – أطروحة

ذكرى امين الريحاني : الشاعر القروي

فلسفة امين الريحاني : كمال الحاج

ان الذي يعنينا من هذه الكتب ما له علاقة بالرحلات ، وقد أشرنا اليه بعلامة فارقة (+) . وسنحصر التوسع في كتابي « ملوك العرب » و « قلب لبنان » لأنهما في نظرنا أبرز ما للأمين في بابي العلم والادب .

ملوك العرب

* * *

ان كتاب « ملوك العرب » حصيلة رحلة الأمين الأولى الى شبه الجزيرة العربية ، حيث قضى سنة وشهرين زار في أثنائها مختلف الأرجاء ، (كالحجاز ، واليمن ، وعسير ، ولحج ، والنواحي المحمية ، ونجد ، والكويت ، وعربستان ، والبحرين ، والعراق) واجتمع الى ملوكها وسلاطينها وحكامها وأمرائها (أمثال الملك حسين بن علي ، والامام يحيى ، والسيد الادريسي ، وسلاطين ومشايخ لحج ، والسلطان عبد العزيز آل سعود ، وآل الصباح ، والشيخ خزعل خان ، وآل خليفة ، والملك فيصل بن الحسين) والى جمهرة من رجالات العرب وقوّادهم وأعلامهم .

وكان الفراغ من كتاب الملوك في أيلول من العام ١٩٢٤ ، وقد جعله الأمين في جزءين . يدور الجزء الأول منه بعد المقدمة حول المسوّدين الذين عرفهم في الاقطار الاربعة الاولى ، وحول الدوافع التي حملته على زيارة المشرق العربي ، متطرقاً الى ما يبثّه الأجانب هناك من عوامل الفتنة والتفرقة وتحريض بعض الحكام على بعضهم الآخر ، والى الصعوبات الجمّة التي اعترضته في الرحلة وفي الاتصال

بمن يرغب من الأئمة . وقد وصف رجـالات العرب أدقّ وصف
محللاً طبائعهم ، وعاداتهم ، ونفسيّاتهم ، مصوّراً مظـاهرهم ،
وآراءَهم .

ولم يغفل عن وصف شتى البلدان التي مرّ عليهـا ، بتاريخهـا
القديم والحديث ، وجغرافيتها ، من حيث امتـداد الرقعـة على
مرمى البصر ، وبسكانهـا من بدو وحضر ومـا لهؤلاء من تاريخ
وأوصاف ومزايا وعادات ومجتمع . وقـد بلغ هذا الجزء ٤٨٦
صفحة مع فهرست للأعلام .

أما الجزء الثاني، وهو بحجم الجزء الأول، فقوامه حديث الأمين
عن تاريخ الأقطار الباقية لا سيما تاريخ العراق السياسي، والثوري،
والأدبي ، وعن قضية الوحدة العربية . هذا الى فصول عامة في
التاريخ والجغرافية تخرج بالكتـاب من حدود المناسبـات الى
الأجواء العلمية .

وبعكس المؤرخين القدامى ، فالريحاني لا يكتفي بالعامّ من
الأمور ، بل يتخذ النهج التفصيلي سبيلاً الى السرد الأنيق، ويجبه
الحقيقة بصراحته المعهودة ونقده المعتاد ، فيعرّض بالمساوىء
دون تستر ، ويلمح الى المحاسن ولا انكماش .

ويتبدل اسلوب الكتاب على ريشة الأمين بتنوّع الأبحاث ،
فطوراً يلين ويخف ويطفو ويهـدأ وتارة يشتـد ويقسو ويعمق
ويزبد . على انك في جميع الحالات المتغايرة تتلمس وحدة الملامح
الريحانية التي تطغى على مختلف الاساليب . يسترسل في السرد

فاذا القصة محبوكة العرى جديدة النتائج، ويتمادى في الوصف فاذا
الاشياء بين يديك حركة وحياة .

ان « ملوك العرب » كتاب فريد في نوعه حتى ظهور الريحاني
وربما بعد ظهوره . فالكاتب في دراسة بعض الاقطـار العربية
يتناول تاريخها وجغرافيتها ومجتمعها بالتحليل والنقد والتوجيه ،
وفي وصف بعض ملوك العرب يسوق اليك جمهرة من رجـالات
شبه الجزيرة وقوّادها ، فاذا بالعلم على ضفاف الكتاب جم واذا
بالادب غزير .

أقلّ ما نصاب به أمام هذا الكتاب : الذهول . فالريحاني
فيه اول فاتح في عهد انغلاق المشارق على نفسها ، وأول مشرّع
للأبواب في وجه الزمن . وهو بين انتقـاله من مليك الى مليك
تقوم الدنيا وتقعد على جنباته ، لكثرة ما يؤرخ ويصف ويحلل
متجاوزاً حدود التاريخ والوصف والتحليل الى مناحي الفلسفة
والفن والادب والاجتماع ، فالسرد على ريشتـه محلول اللجـام
والفكر مرخيُّ الأعنة، يلفّ إنتاجه بعلم صحيح، وآراء مقرونة
بالبراهين ، ومشاهدات مشفوعة بالتفحص لخفايا الامور ، وأدب
يعلو بالنسق القصصي الى أوج التعبير .

وانك لتتعب فعلاً ، وانت ترافق الرحّالة اللبناني في صعوده
وهبوطه وتسياره ، يصـادم الوعر ويقتحم المبهم ، وفي عينيه
أمل أكبر من الوعر والمبهم ينير له الطريق ويذلّ المشقات ، على

انه يعرف كيف يزيل تعبك بما ينثر حولك من مفاجـــآت وطرائف ، فاذا بك هانىء في ضناك .

والريحاني لا يستريح في بلد إلا أطلعك على تاريخــه كاملاً ، كأنه يأبى أن يذهب وقت الراحة بلا جدوى .

وكم يوجعه ان يختلف العرب « عن بعضهم ظاهراً ومعنى » ، وهم على ما بينهم من روابط الدين والعنصر واللغة (فمن «مناخه» الى «عيال» كأنك انتقلت من سويسرا الى بلاد المكسيك) .

وما أطول الطريق وما أمتع الصفحات قبل ان يبلغ بك من يقصد من المسوّدين ، فهنا الطبيعة بأشكالها المتعددة ، والانسان بألوانه المتفرقة ، كل ذلك ضمن إطار من التاريخ لا يخلو من اللهو ، ولهو لا يخلو من التاريخ .

وكم تروقني الاشـارة الى مـا في « ملوك العرب » من رائع الوصف ، فكلما وجد الأمين محطاً لخياله ومنفسحاً ، اطلق القلم في دنيا الرسم ، فاذا اللوحات تتحرّك تحت أنامله ، تموج فيهـا الالوان ، تندمج الاصباغ ، تتآلف الأخيلة ، وتمثل الحياة بأبهى حللها وأصدق تعابيرها .

ان هذا المؤرخ عروف بخفايا اللفظة ينزلها منازلها المعدّة لاقتبال الجرس والشجا ، شديد الاحساس بألاعيب التركيب يحيكهـا على منول من التمرّس بالسحر والمران ، طوّاف بمجالات المرئيات يحبكها حبكاً صنعانياً فريداً ، شغوف بالوجدانيات يتتبعها في أبعادها ليردّها أمام ناظريك مناجاة غيب ومحاورة ضمير .

ولا يخيّلن لأحد أننا ، ونحن نضع أمام الأعين ، خطوط الكتاب الأولية في تفصيل المحتوى ، قد أخضعنا «ملوك العرب» للدرس الشامل والمعالجة المستوفاة ، فاذا كان يصحّ مثل هـذا الاخضاع في مثل هذه الصفحات ضمن حـدود الكتب الادبيـة الصرف ، فانه في الكتب التاريخية والجغرافية بعيد المنال لاسباب معروفة لا مجال لشرحها إذ إن أقل انحراف عن السلك المشدود من اول الكتاب الى منتهاه ، يحدث فجوة بين القارىء وتطور الأحداث .

حسبنا من « ملوك العرب » خيال شفاف قد يكون فيه بعض الهداية . إن مثل هذه الكتب يُقرأ قبل أن يُقرأ عنه .

قلب لبنان

***

آمنَ الريحـاني بالعروبـة كما آمن بتوحيد كلمة العرب ، فاصطبغ ايمانه هذا بمعنى الرسالة . ولم تكن رحلاته المتعددة الى مواطن الأعراب الا في سبيل احيـاء الفكرة التي جنّدلها القلم والعافيـة ، فلا غرابة ان تتلقّـاه الأقطـار الشقيقة بالترحاب والتكريم ، وتقيم له عبر شـاهد ودليل على اقتناعهـا بمعتقده وتقديرها له .

ومن الطبيعي ان تكون نهاية مطاف الأمين في الجبل الذي أنبته ، فيخص لبنانيته بما خص به عروبته من التأريخ والتدوين، فاذا به وفيّ للثانية ، وأكثر وفاء للأولى .

لقد شاء الريحاني أن تكون خاتمة حياته في « قلب لبنان » ، فقـد كان يعمل القلم في هذا القلب عندمـا وافته المنية واخمدت قلبه ، فبقيت بعض رحلاته فيه مجزوءة .

أول ما يطالعنا بهالكتاب الحميم،معلومات جغرافيةوتاريخية عامة عن الوطن الذي خصه الأمين بخمس عشرة رحلة انهى الكتابة في تسع منها تناولت تسعاً من مناطقه الممتدّة من شماله الى يمينه .

وكعادة رحّالتنا في معظم كتبه ، فقد تعدى وصف المظاهر الطبيعية الى صلب التـاريخ القائم على النقد الاجتماعي الصحيح ، والمشاهد المقرونة بالتحليل ، والى وصف الشعب اللبناني بعاداته وتقـاليده ومختلف طبقاته ، فذكر الآثار وصوّر المعالم وروى الاساطير وتغنى بأحب الأوطان الى قلبه .

ان طبيعة لبنـان الساحرة ساحرة على ريشة الأمين ، يتخذ من الوانهـا ألواناً لأدبه ، فالقرى العالقـة بأطراف جبالنـا موزعة على جنبات الكتاب ، والتقـاليد الحبيبة أعراس على الصفحات . أمّا الانسـان اللبناني ، بمظهريه الكادح والمترف ، فله هنا غير مرتع ومجال .

على ان هذه اللوحات الجمالية ، لاتروي ظمأ البحّاثة العالم ، ما لم يضفِ عليهـا من الاجتماع ظلاً ، ويحيطهـا بنقده ، محاولاً إظهار الواقع ، بمحاسنه ومساوئه ، متخذاً من الارشـاد حيناً والتأنيب أحياناً سبيلاً الى الإصلاح .

ولم تصرف الناحية الاجتماعية المؤلف عن الالتفات الى الماضي العريق ، حيث أخبـار الفاتحين والغزاة والحاكمين ومكنونات الاساطير والحقائق، يلفّ كل ذلك بمتعةأدبية تجعل كتابة التاريخ والجغرافية والرحلات على يديه أدباً يصمد فنيّاً على الزمن .

ومهما بعد الامين عن النـاحية العلمية بتطرّقه الى المظـاهر المحلية بطبيعتها وسذاجتها، فانه يخفي وراء هذه المناحي اللاهية كثيراً من الجدّة المشبعة بالتجارب والاختبارات . فالتـاريخ لم

يمنع كتاب « قلب لبنان » ان يكون أدباً ، كما ان الادب لم يمنعه ان يكون تاريخاً .

تقرأ قلب لبنان فتنساق معه انسياقاً عفوياً لكثرة ما ينشر امامك من عادات الآباء والأجداد وتقاليدهم في مجـالات الكرم والنجدة وحسن الضيافة . ويكاد أسلوب الأمين يكون من طبيعة تلك العادات والتقاليـد فهو عفوي التعبير ، مرسل النبرات ، تتحكم به السجيّة فلا تترك للصنيع الفني إلا الحبكة الخـاطفة . فأنت معه تظن نفسك تستمع اليه يحدثك ويحاورك لا أنك تقرأ له .

ان التاريخ هنـا تاريخ محبّب ، لأنه استعادة لمـاضٍ بأدق خيوطه وأدفأ ألوانه. تاريخ مشرق لا يعرف تجهّم البحث العلمي وتعاريجه المعقدة . وقـد تكون الرواية السمحاء فيـه أبرز من السرد المضبوط ، ومع هذا فالمعلومات التي تضجّ بهـا تضاعيف الرواية لا تتدانى عن مهابة التسجيل الرصين .

ويحيي الريحاني في كتابه هذا ، الكثير من أعـلام الأفراد والجماعات والاماكن، فيشارك الوضيع الرفيع في مجال العظمة، وترتفع الحنوة والقرية الى مستوى القمة والمدينة .

أما الظرف فهو حشو افكاره وتعابيره يزيل به سأمك حيث لا سأم ، ويخفف به تعبك حيث انت غير مجهود .

والوصف عند الأمين ، وليد العفوية كأن سيل افـكاره الجارف يضيق بقيود الصنيع الدقيق . وقد خص الأرز بالقسط

الأوفر من وصفه، فتميز هذا الوصف بخاصة فريدة بين اوصافه ، فبعد ان كان الخيال خارج الغابة قصير الخطى قريب الأمداء ، رأيناه في ظلالهـا منطلق الجنـاح طويل البـاع يشده الحس الى الارتواء من مناهل الانفعال الوجداني والبسط التصويري ، ولا عجب فالأديب هنا على ارض هي احب بقاع الدنيـا الى قلبه ؛ ورونق التعبير لا يصح الا حيث يصح الشوق .

ويدنو الريحاني من الوصف الخيـالي ، يتعدى بـه المحسوس فيبلغ مناجاة الضمير واستحضار الصور المطوية .

انه « قلب لبنان » رائعـة الأمين في مجـال الحس الصـافي والتعبير الدقيق .

عقيدة الريحاني الدينيّة

* * *

بين « الحرْم » والايمان

ما كنت لأتلمّس منزلة الايمان من قلب امين الريحاني ، لو لم يَسبُقْنا هو نفسه الى هذا الميدان . فالايمان — في نظري — رهن بمن لا يخيب عنده صاحب معتقد عُلَويّ . أما وقد شاء صاحب «قلب لبنان» ان يجعل من هذا الكتاب ساحاً لتَنَفّسه الروحي ، فليكن كتابه في هذه الصفحات رجعاً لمخبآت روحه ومطويات ضميره . « سبحانك اللهم ، فـان أنت شيـدت « القعاقير » بين العقول ، ورفعت الجدران عند حدود العقائد ، فما أقمت حـداً او حاجزاً بين القلوب الصافية » .

أدرك الريحاني «وهو جالس ذات يوم على صخرة» من صخور لبنان ، « أنه في جبل القداسة . . . وأنه كيفما اتجه يرَ للخالق أثراً . . . وأدرك كذلك أن العبادة لا تلبس الثوب القاتم ، وان القداسة لا تعرو الوجه القمطرير ، وان الاشراق والبشـاشة والضحك كلها من نعمائه تعـالى . » فقال : « إي وربّ الأرز .

ان الشمس ترقص على الصخور ، وتحت الحور والدفلى تستريح ، وفي البساتين تتعاون والتربة على البر والتقوى . . . تبارك العقم تحت رجليك، والجمال بين يديك، والنمو والأثمار أمام ناظريك . »

وأرى « أن يعبـد الله في المعبـد الأكبر » في الفلاة ، في الحقول ، في الوادي ، في ظلال الصنوبر والزيتون ، فقال الناس إنه كافر ينكر وجود الله . وقـد سمعه بعضهم يقول : الطبيعة أمّي ، ويرددها ، فقالوا إنه يجدّف على الله تعالى .

ورأوه يقف مأخوذاً عند وكر تزقزق فيه صغـار الطيور ، أو عند زهرة تنوّر بين الصخور ، أو عند قندولة يفوح طيبها من بين الأدغال ، او على رابية خضراء فوق جبل أجرد أصمّ . رأوه يهيم في الحقول ، وفي الغابات ، فقـالوا انه يتأثر الجن ، ويجتمع بهم في غار الوادي ، وانه لذو جنـّة . فكانوا لذلك يجتمعون عليه ، فيضحكهم ويضحكونه ، فيحـار فيهم السنونو ، ويهز رأسه قائلاً : من العاقل فيهم يا ترى ؟ ومن المجنون ؟ . »

وكأني بالسنونو يسأل الأمين ان يردّد هنا ما جاء في «نجواه» على لسان الخالق وقد سأله ان لا يحرمه من فيض مكارمه ، ولا يبعده عن ينابيعه ؛ وفي قوله الاثبات الصريح لما في الجزئيات من دلائل على الحكمة الالهية والوجود الالهي :

« ان ينابيعي لفي النجوم ، وفي مـا يربط النجوم بعضهـا ببعض ، وفي ما ينشأ عنها من قوة وعافية .

ان ينابيعي لفي الحقول وفي ما ينشأ فيها من الأزهار وفي ما تبعثه من أريج الحب والجمال .

هي كلها امام عينيك وطوع يديك

يد العقل الكشاف ، ويد الروح الخالدة . »

ويسألنا الخالق ان نكون أُمناء على نبض الحياة فينا، وروح الحب ونور الحكمة ، « فهي الألوهية ديناً ويقيناً » .

وفي مثل هذا المجال يقول الأمين :

« . . . والنجوم هي أيدي الله الوردية الفضية الذهبية البنفسجية ، تعطي ولا نسأل ، تنثر ولا تستعيد . . .

هي أيدي الله التي تحمل الى كل ما فيه جمال وابتهاج وسكينة وهدى .

هي أيدي الله ربات الشعر ، ربات الفنون ، ربات الخيال الصفي ، والغبطة الشجية . »

ويقول مخاطباً الأرزة ربة الأشجار :

« حدثيني ، وعلميني ، وارفعيني الى علياء إيمانك »

ها هنا ، في مسقط رأسه ، في لبنان ، « بعد ان قضى نصف حياته في المدينة العظمى ، مدينة نيويورك » ، راح الأمين «ينشد حقائق الوجود الكبرى فوجدها في العزلة — ككبار النسّاك — او وجد في العزلة سبيلاً أوصل اليها ، ووجدها في الطبيعة ، او

وجد في الطبيعة الدليل أوضح عليها ، ووجدها في البساطة أو وجد في البساطة ألطف ناحية من نواحيها، ووجدها في الجمال، او وجد في الجمال الرمز الأنور من رموزها، ووجدها في الوداعة، بل وجد في الوداعة (أسحر) صورها ، وهي جالسة بين أختها الشمس وأخيها القمر . »

أوليس هنا السبيل الذي لجأ اليه كبار الصالحين والفلاسفة ، للوصول الى معرفة الخالق ؟ أولم تتفق التعاليم الدينية والمذاهب العقلية ، والنشآت الطبيعية في الدلالة على واجب الوجود ، والتوفيق بين موحيات العاطفة ودلائل العقل ؟ ولقد سار الأمين على هذه الدرب فاكتسب لقب الفيلسوف . إنها الدرب الموصلة الى الحقيقة مهما تشعبت وتباينت مسالكها واختلفت في الشكل والتفصيل .

وإيمان الريحاني في الجوهر لا في العرض ، في الاصول لا في الفروع ، فالاعجوبة هي « في عقيدة الناس اكثر مما هي في عين روما، او الأرزة ذات الثقب المتحجّر في جذوعها . » ولم يكن ما ذكره من التقمص الهندوسي ومن إمكانية عودته الى الارض بعد الف سنة ، ليرى السنديانات الثلاث قائمة هناك قرب منزله في الفريكة تفيّء قبره وقبور ذويه ؛ او من نبوءة صديقته الاديبة مي التي كانت جارته بالفريكة في صيف ١٩٣٨ إذ قال لها : « سأعود أنا بعد الف سنة الى سفح جبل أفقا لأتحقق صدق نبوءتك من ان مكانين هناك بين الصخور والطبقات الكلسية قد

يصيران مغارتين ، تتدفّق فيهما المياه ،كما تتدفق اليوم من المغارة الكبرى » . فتقول مي : « موعدنا أفقاً بعد الف سنة ». ويتابع الريحاني : « وقد تشهد مي الاعجوبة ، وتكون هي جزءاً منها إذ تجلس هنـاك ، في ظل تلك الجوزة ، او في ظل الجوزة التي ستكون هناك ، وهذا الكتاب بيدها ، تقرأ فيه النبوءة » . ولم يكن ما ذكره من عدم التعريج على سيدةالجوزة ينذر لها نذر السلامة شأن المؤمنين ، وامثال هذه الامور التي ضجت في رسالة الغفران مثلاً ،إلا من قبيل السخر بالمعتقدات السطحية او الظرف والدعاب الريحانيين .

فها هو يعود الى سلامة التسليم الصحيح فيقول لاحـــدى السيدات في جاج : « إني ناذر نذراً يا سيدتي ، وكان من الواجب أن أمشي الى الأرز حافياً » فتقول السيدة : « نذر مقبـول إن شاء الله ! » .

وها هو يلمح عن صحة المعتقد وسقم التقاليد في مقابلته بين البريتانيين واللبنانيين في قوله : « وبعد تنصر البريتانيين، شيدت في بلادهم ،كما شيدت في هذا الجبل الكنائس والأديرة من حجارة هيا كل الأوثان، وتطيبت حياتهم بطيب القداسة التي كانت تعبق من هالات قديسيهم الوطنيين ، وفي مقدمتهم سان مالو وسان تغدوال ، كما تطيَّبت حياة اللبنانيين بطيب الاحبار والأبرار ، والنسَّاك القديسين ، وفي مقدمتهم ما مارون ومار سمعان ومار قزحيا عليهم السلام ، فالحق يقال ان كلا الشعبين صقر إيمان ، له

من مآثر الورع والتقوى ما له من خنفشار العقائد والخرافات . على ان صفات أهالي الجبال الطيبة تمحو باقي ذنوبهم . »

والريحاني لا يقف امام جبالنـا إلا خاشعاً ، ففيهـا « يقيم الصالحون والصالحات،والمتعبدون والمتعبدات، وتكثر الراهبات والصلوات ، والمهرجانات الدينية . وما هو بالغريب في بيوت الكهان ، وان كان غريب الايمـان ، فقد كان جد جده لأبيه أسقفاً ، وكان على ما يقال من العلماء الصالحين . »

وهو لا يترك ديراً إلا ذكره ولا كنيسة إلا أشار اليها، فهذه « كنيسة السيـدة الفرزوزية التي بنيت في سنة مظلمـة كثيرة الكوارث » ، وهذه كنيسة شيخان العامرة « والسيدة قديستها، عليها السلام ، تطرد الشياطين من شيخان » .

وهذا دير عبرين الذي أسسه البطريرك الحويك يوم كان أسقفاً ، « ودير مار عبـدا عليه السلام » الذي يقول فيـه وفي كنيسته : « عدنا الى الايمان الصحيح ، في دين المسيح ، وهذا راهب من رهبان الدير يرحب بنا ، ويفتح لنا الأبواب القدسية كلها ، أما الكنيسة فهي أقدم من السنديانة وقد قيل انها أقدم الكنائس المارونية في الجبل .

وفي هذه الكنيسة صورة لفنّان ايطـالي ، تشهد ألوانهـا وأسلوبها بما مرّ عليها من الدهر . . . وقـد رسمت على جـدار الحجرة التي وراء المذبـح ، صورة ماريو حنا مارون والقديس إبريانوس . وهنـاك حجرة اخرى وراء الكنيسـة ، مهـدوم

جدارها الشرقي ، ومرسوم على اثنين من الجدران الثلاثة الباقية
صورة الرسل ، وصورة للمريمات يندبن يسوع .

... هذه الكنيسة المختلطة العهود والمذاهب في هندستها
وتصاويرها ، هي اليوم بيت القديس شربل — لا شربل
اللبناني — بل شربيليوس الروماني ، الذي تنصّر على يد أسقف
الرها في عهد الملك تريانوس . »

نرى باي احترام عميق يداني الامين مواطن القداسة ،
فالدعاء على أسلة لسانه . لقد « غدت بحشوش معقلاً للنصرانية،
بل للمارونية القحة . رمزها السنديانة والمزامير ، وشفيعها
القديس سمعان العمودي ، المتخصص في عجائبه بقتل الديدان
والحشرات ، وذلك بأن ينثر من ترابه عليها . تراب مار سمعان!
ان فيه الموت الزؤام لكل ما يدبّ ويتحوى على هذه الارض.»
فيتمنى الامين شيئاً منه لسياسيي بلاده .

« ولعين كفاع قديس هو مار روحانا ، له مثل مار شربل
عجائب كثيرة » فيقول صاحبها مارون عبود : « اعجوبة
واحدة ، يا مار روحانا ، تيقظ بها عين كفاع ، وتحييها .
فيجيبه الريحاني : « اسكت يا مارون ، واقنع ، من استحق
العجائب رآها . »

ولكن مارون يذكر غير ذلك من عجائب هذا القديس .
فقد أنقذ ذات يوم صبيين من أسد هاجم عليهما . أوقف مار
روحانا الاسد وحال دون الهجوم . بماذا ؟ بالسيف ؟ لا وربّك

ليس مار روحانا كمار جرجس قاتل التنين بالرمح الطويل .
مار روحانا من دعاة السلم والمحبة . فقد انقذ الولدين من الاسد
بنهر أجراه بينهما وبينه . مكانك تُحمَد ايها الاسد ! مسكين
الاسد ، وقف على ذلك الشاطىء حائراً بائراً .

ثم يسأل مارون وهو يلطم بكفيه جبينه العالي : واين ذلك
النهر ، يا مار روحانا ؟ ألم يبق منه ساقية او سويقة او عين
او عيينة او نبع او نبيع ، هذه هي عين كفاع المتعبدة لك ،
ولا عين فيها ، هي ظمأى ، يا صاحب الطوبى ، هي ظمأى ،
واهلها منذ القدم يفتشون عن العين المخفية ، ولا يزالون ، فهل
هي مغطاة ، كما تقول الاسطورة ، بسبعة لحف ؟ » .

واذا ما تطرقنا الى ذكر العجائب والقديسين ، رأينا للامين
في هذه الرحاب غير جولة تحف بها الرهبة ويشدها الايمان .
حسبنا« سفر القديسين » عنده فان فيه اكثر من دليل . يقول :
« ليس هذا الزمان بزمان قداسة وبطولة . وان ظهر شيء
منها ، ولم يُعِنه الطبل والزمر ، يظل في منتأى عن الناس ...
ويقول الجاهل في قلبه ، كما يقول العالم في كتابه ، ليس اله ،
وبالتالي ، ليس في هذا العالم ، عالمنا — عالم النفط والحديد
والكهرباء — انبياء او قديسون ، فان نحن انكرنا هذا القول ،
وقلنا ان الانبياء القديسين لا يزالون معنا ، يظهرون اليوم
كما كانوا يظهرون في الماضي، دون ضوضاء ، وبأتم معاني الوداعة
والحياء ، قال لنا المشكك : واين هم ؟ وان سرنا به الى واحد

منهم ورفعنا عن رأسه القلنسوة الخداعة قال : هات الاعجوبة ان كنت من الصادقين. خذوني بحلمكم ايها المشككون الافاضل، وتعالوا نزر احد القديسين اللبنانيين في هذا الجبل .

اننا في الطريق الى كفيفان ... سأحدثك إذن عن القديسين لأنسيك الطريق اليه ، ولأهيّء نفسك لما ستلقاه في المزار من البركة والنعمة .

نعمة الله الحرديني ، نسبة الى حردين ، مسقط رأسه ، هو الذي يُعرف بقديس كفيفان ، وهو أشهر القديسين اللبنانيين . صنع العجائب في حياته وفي مماته ، بشهادة كثيرين من اهل القرى ، وستشاهد بعينيك الاعجوبة الكبرى عندما تقف امام تابوته ، فتراه تحت غطاء الزجاج بشراً كاملاً ، لا نقص ولا فساد في جثمانه كأنه في غيبوبة القداسة الراقدة ، وقد مرت على رقدته هذه ثمانون سنة .

من مواهبه الخارقة أنه كان يشعر ببعض الحوادث قبل حدوثها ، كان يتمتع بقوة او نعمة الكشف ، فقد رأى ذات يوم ، من نافذة غرفته في الدير ، بيت الماشية في حال ارتاع له ، فنادى احد الخدم وأمره بأن يخرج الماشية من ذلك البيت في الحال ، وما كاد الخادم يفعل حتى سقط البيت بسقفه وجدرانه دفعة واحدة .

ومن كراماته التي تذكر ببعض أولياء المسلمين انه دخل ذات يوم الى الكنيسة يقدس ، فما رأى الشماس هنالك ، فطلبه ،

فقيل له انه مريض ، فبادر اليه ، فلقيه على الفراش محموماً ، فقال ، وقد وضع يده على رأسه : قد شفيت باذن الله ، قُم واتبعني ، فنهض الولد من فراشه بهمة صادقة ، ولا حمّى به ولا وهن ومشى الى الكنيسة مع القس نعمة الله وخدم القداس وصلى النوافل بعد ذلك حمداً لله على الشفاء .

ليس في الحادثتين ما يقبل علماء النفس بأن يسمّى أعجوبة ، فالأولى هي من باب الكشف والثانية من باب الايحاء .

آمنا بما يقوله علماء النفس ، فهل في علمهم في الحادث التالي ما يكشف السر ، او ينفي الأعجوبة التي تختلف عن أعاجيب القديسين المعروفين ؟

قلّت المؤونة في الدير ، فسأل الرئيس القس نعمة الله ان ينظر فيها ، ويخبره بما نقص ليجلب اللازم منه ، فجاء بيت المؤونة وقال للوكيل : اعطني ابريقاً من الماء ، فجاءه بالابريق ، فصلّى عليه ، ورش الماء في البيت ، وعاد الى الرئيس يقول : المؤونة كافية ، ولا حاجة الى زيادة والحمد لله ، فراح الرئيس يتحقق من ذلك ، فوجد كل ما في البيت زائداً فائضاً . فمن أين جاء الفيض ؟ أمن الماء ، أم من السماء ؟

أشدد حقوي إيمانك واتبعني . لقد مات القديس ، ونقل جثمانه بعد اربع سنوات سليماً الى الكنيسة ، فذاع صيته في لبنان . وكان ذلك الصبي ، وفي عنقه الطوق المقدس ، ممن حُملوا اليه للاستشفاء .

ومن هؤلاء من كانوا في حال من المرض لا ريب فيهـا ، مقعدين ، مصروعين ، مشلولين . هذا رجل من المتن الأعلى ، مقعد منذ ثلاث عشرة سنة، يمرّ محمّلاً على بغل ببكفيا ، فيبصره طبيبه الشيخ ابو علي الجميل ويسأله : الى أين ؟ فيقول المريض : الى كفيفان لزيارة القديس . فيقول الشيخ الجميل : أهون على القديس ان يصنع رجلاً جديداً من ان يُصلحك ويشفيك .

وبعد الزيارة عاد ذلك الرجل في الطريق نفسـه ، وأوقف بغله أمام بيت الشيخ أبي علي، فلما رآه الشيخ أعاد ما قاله سابقاً، فوثب الرجل عن ظهر البغل الى الارض ، وشرع يركض ، فكاد الشيخ يجن مما رآه .

وهوذا راهب صريع من جاج يحج دير كفيفان ، وينام ليلة في الكنيسة أمام تابوت القديس ، ويخرج في اليوم التـالي سليماً معافى . هذا الراهب عاش بعـد ذلك ثلاثين سنـة في وفرة من الصحة والعافية .

وفي ذلك الزمان جاءت امرأة درزية عاقر من برمانا تستغيث بالقديس ، فرزقت في السنة التـالية ولداً ذكراً . فاستـأذنت زوجها بزيارة الدير ثانية براً بالنذر ، فأذن الزوج بذلك وسـار معها . فلما وصلوا الى اسمر جبيل توفي الطفل وهو على صدر أمه، فأخفت الأمر عن زوجها ، خوفاً من نقمته ، وعندما وصلت الى الدير ، وضعت ذلك الطفل عند جثمان القديس ، وخرجت من الكنيسة تخفي ما بها ، وتأمل ان يستجيب القديس طلبتها .

وكان زوجها ينتظر خارج الكنيسة ، فسألها إذ رآها وحـدها عن الطفل ، فما أحارت جواباً ، ولا ملكت دموعهـا . فصاح الزوج بها وهمّ بضربها ، ولكن أحد الرهبان جاء في تلك الفينة يقول للمرأة : تعالي خذي طفلك ، فقد ملأ الكنيسه صراخاً .

قد يسأل ضعيف الايمان هذا السؤال : أمن المؤكد ان الطفل كان ميتاً عندمـا وضعته الأم عنـد تابوت القديس ؟ أوليس من المعقول ان يكون قد أصيب بنوبة في أسمر جبيل ، فزالت بُعيد ذلك في الدير ؟

إننا لفي الأرض الحرام، لا تليق فيه سؤالات المشككين . »

بمثل هذا الهوس وهذا الاندفاع البريء يدافع الريحاني عن القديسين ويناقش روما في اغفال بعضهم . « فالقديس الذي لا أهل له أغنياء ، ولا طـائفة أو جمعية او رهبنة تهـتم بأمره ، يموت ويدفن كما يموت ويدفن أي راهب وأي اسقف وأي بطريرك من رؤساء واحبار هذه الطائفة المارونيه المترومنة ، فلا يطوّب، ولا يؤذن بان يذكر اسمه مع القديسين » .

ثم يقول : « وليس قديس كفيفان الاسير الوحيد لارادة رومية الذهبية ، فهنـاك مار شربل بن مخلوف من بقعكفرا ، عاش وترهّب وتقشّف وتنسّك وصنع العجائب وتوفاه الله يوم توفي البطريرك يوحنا الحاج. حدثني العالم بقديسي لبنان واعاجيبهم قال : دهم الجراد الجبـل فوصل الى ارض مـار مارون عنايا ، فأمر رئيس الدير بالمـاء يؤخذ الى « الحبيس » شربل ، فصلى

الحبيس على ذلك المـاء ، فرُشّ منه في املاك الدير ، فتقهقر
الجراد وارتد عنها جائعاً مدحورا . فهل في اعاجيب القديسين
الاوروبيين اعجب منهـا ؟ وهذه اخرى : كان لرجل من آل
لحود بعمشيت ولد مريض اشرف على المـوت ، فأرسل الى دير
مار مارون يدعو الحبيس ، فأمره رئيس الدير بأن يذهب مـع
الرسول ، دون ان يعلمه بقصده ، فلما انتصفا الطريق قـال
الحبيس للرسول لا لزوم بعد هذا لذهابي معك ، فقال الرسول :
لماذا ؟ فأجاب الحبيس : لان الولد مات .

قال هذا ورجع الى صومعته ، فأرسل الرئيس راهبـاً الى
عمشيت يتحقق الخبر ، فكان صحيحاً . مات الولد ساعة وقف
الحبيس في الطريق ليعود الى الدير. فهل تنقص هذه عن اعاجيب
القديسين الاوروبيين ؟ وهل في قبور الابرار الاجانب غير ما
في قبور ابرارنا ؟ بعد وفاة الحبيس شربل كان النور ينبثق من
قبره حيناً بعد حين ، ففُتح القبر بعد بضع سنوات من وفـاة
صاحبه ، فألفي الجثمان سليماً لا اثر فيه للبلي او الفساد ، بـل
هناك ما هو أعجب من ذلك ، فبعد ان نقل القديس من القبر
الى الكنيسة ، كان يعرق كأنه حي ، وكان اذا جُـرح يسيل
الدم من جرحه .

فهل تستغرب لجنـة الفحص البابوية هذا وتنكره ، وفي
كنائس ايطاليـا صور قديسين وقديسات تندى بالعرق والدم
امام المؤمنين .

هذه اللجنة التي امت لبنـان في سنة ١٩٢٦ ، شاهدت هذا
اللبناني البار في رقدته القدسية ، وسمعت اخبار اعاجيبه كلها ،
وامرت بان يوارى الى ان يحين وقت تطويبه .

ولا يزال الموارنة يبنون الكنائس لمـار شربل الروماني
« شربيليوس الرهاوي ، وقلمـا يبالون بمار شربل ابن مخلوف
البقعكفري اللبناني ، ذي الجروح الطرية الدامية ، فأين التقوى
والغيرة ؟ واين الانصاف ؟ »

يا ليت الريحاني عاش حتى يومنا هذا فشاهد الاحتفالات في
عاصمة الكثلكة بتطويب الاب شربل الذي دافع عنه هذا الدفاع
النقي ، فتقرّ عيناه .

وهذا... القس دانيال، الراهب البلدي، من حدث الجبه...
توفي في دير مار سركيس بقرطبة فبدا ما كان يخفيه: مسح طويل
كان يستشعره ، هو مسح النساك الأطهار .

وبعد وفاته بقليل غدا النور يشع من قبره ، أبصره الناس من
القرية ، فأخبروا رهبان الدير ، فأُخرج دانيـال من ذلك القبر
ووضع في الكنيسة ، وكانت الأعجوبة الأولى ، التي أذن الله بها
على يده ، انه منح امرأة عاقراً ما كانت تبتغيه .

ويرشّح الريحاني للتطويب في نهاية سفر القديسين رفقا الريس
من حملايا التي «انخرطت في سلك رهبنة القلبين الأقدسين» ويدافع
عنها بكل ما أوتي من إيمانه المعهود ، أفنَشُك بعد ذلك بعقيدة
من ملأ الأجواء غناء بأبرار بلاده ومختاريه ؟

كان أعلام الفكر ، في كل عصر ومصر ، عرضة لنقد العامة وتأويلهم واضطهادهم ، وقد صوّر صاحب قلب لبنان ذاته رجلاً شاذّ العقيدة الدينية ، في نظر أهل بيئته إذ « وقفوا حائرين تجاه بدعة فاقت إدراكهم ، وكان من حسن تعقلهم أنهم في تلك الحيرة آثروا الحياد على إظهار العداء او الولاء . »

على ان هذا الشذوذ اوقع الريحاني في الكفر الموهـوم « فالاشاعات تعددت ، وتجاوزت في انتشارها حدود الفريكة ، فانبرى من احدى القرى المجـاورة أحد ذوي الغـيرة على الدين يهيّج جيرانه على الكافر . وقد ألـّف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان وراحوا يحتجّون الى أسقف الأبرشية ، ويطلبون مساعدتهم في استئصال شأفة الكفر من بينهم : الحرم يا سيدنا ، الحرم لا يؤدبه غير الحرم ! فاستجاب سيادته طلبهم ، وأصدر حرماً كبيراً رهيباً ، يمنع فيه أمين فارس الريحاني القـاطن في الفريكة بأبرشية قبرص ، من قبـول الأسرار الكنسية ، ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم ، او بالحري بمنع المؤمنين من مخالطته » .

قابل الأمين هذا الحرم برحـابة صدر وطمـأنينة نفسية ، ليقينه من ان إيمانه أرفع من ان تطاله الظنون العابرة والمفـاهيم البدائية ، فنسمعه يقول : « وقد كنت في تلك الأيام شـديد التنسّك ، أوثر الوحدة الكلية على مخالطة الناس ، فجاء الحرم في وقته ومحله ، فكتبت الى سيادة الأسقف أشكره عليه ، والى أهل الفريكة أحضّهم على طاعة أسقفهم ، فيعملون بمـا يوجبه الحرم عليهم ويتركونني وشأني . »

وكثيراً ما أحاط الكاتب هذا الحرم بالتندّر ، فهو حين دخل بيت شباب ، بصحبة الأخ حنّا ، الهارب من الدير ورفيقه في بعض رحلته الثانية « اجتمع حولهما زمرة من الاولاد ، وسمـع الأخ حنا أحدهم يقول : هذا الذي حرمه المطران ، فهمس الكلمة في أذن الأمين وهو يستعجله في الخروج من الضيعة . »

ويُسأل في بتغرين : « من أين حضرتكم ؟ » فيقول : « من الفريكة . أنا أمين فارس الشدياق ، وحضرته الأخ حنا جرجس الملاح » ثم يضيف بظرفه المعتاد : « وقد سرّني ان يكون للاسمين وقع واحد في نفس السائل ، سرّني ان شهرة « الكافر » لم تصل الى بتغرين . »

وفي طريقه الى صنين خاطبه احد رفقاء الطريق : سمعنا في الدكان أنك مهندس .

وقال الآخر : وسمعت أنا على النبع أنك معلم أولاد .

وقال الثالث : وقالوا انك قسيس بروتستنت فمن الصـادق منهم ؟

قلت : كلهم صادقون فقد مارست هذه المهن كلها .

قال الأول : وما مهنة حضرتك اليوم ؟

قلت : مبشّر بالانجيل .

لن أناقش الأمين في شذوذ عقيدته ، في ذلك التعميق العقائدي

الذي أوقعت العامة معظم مفكري العالم في صفائه المغلق ، فقد دافع بنفسه عن نفسه في هذا المجال دون قصد منه ، عندما ترك لنا في الروحانيات الصفحات الروائع . فاسمعه يقول عند بلوغه كسارة الآباء اليسوعيين في سهل البقاع : « أتقن العمل الخبير ، وأحكم عرى التضامن والنظام ، وثابر واجتهد، تكسب الدنيا والآخرة .

قال النبي داود : يا بني أعطني قلبك، كأني باليسوعي الأكبر يقول لأخيه : يا أخي، أعطني إرادتك ... أعطني الارادة منك واليد والعقل، وخلّ القلب يخدمك في الزلفى اليه تعالى . اسلك المسلك الذي يؤدي الى الغرض المنشود، وان كان المسلك مظلماً، وان كان كثير الاعوجاج .

أعطني الارادة واليد والعقل، أُعطك الخبز والقناعة ،أُعطك الحكمة الموزونة وكل ما سوى ذلك باطل وقبض الريح . »

واذا كان هناك من يجد في مثل هذه الأقوال شذوذاً عقائدياً فليقف مع الأمين أمام الأمكنة المقدسة وليسمعه بأي خشوع يناجي معالمها : « صوت الأجراس عند الغروب ، يدوي في قباب الأديرة على قمم الجبال ، فيحمله النسيم وتجسمه أصداء الأودية ، فيتموّج ويتشبّح في الفضاء ، فيزداد جلجلة وشجواً ، هو ينادينا كما نادى الأجداد ، هو يبعث في النفس الخشوع والتقوى ، هو يذكر بالماضي كقصيدة او انشودة . جرس الغروب ، جرس الصلاة من اجل اولئك الذين سبقونا الى دار

الخلود ، من اجل الاموات . جرس الذكريات التي يتعانق فيها الحزن والسرور . جرس الآمال التي يرددها تهدار الحديد ، وتضمخها الاودية بشذا الزنابق والرياحين . كل مرة اسمع جرس المساء يرسل صوته المهيب من قبة الدير القائم على رأس الجبل ببيت شباب اتصور اشياء من الذهب والحرير تنظم تراتيل محزنة ، واشم روائح البخور في الفضاء . هو الخيال في الفن المسيحي في مواكب السماء ، هو السحر في الحزن المسربل بالغسق . »

وفي حديث الامين عن « الخربة الكبرى » يقول: «وقد سلم من ذلك المجد تقليد ورثته « سيدة » هذا الزمان عن بعلة الزمان الغابر . فالتينة من طائفة تلك الاشجار المقدسة .قدّست للسيدة العذراء لها المجد . وعوام الشيعة في هذا الجوار ، لفي مقدمة من يقولون : « لها المجد » ، ويجيئون الجوزة حاجين ، فيعلقون على أغصانها الرقاع ، وينذرون لها النذور» .

وفي كلامه على الاساطير استشفاف للعقائد الصحيحة ، وقد استنتج ان تلك التعاليم في الموت والبعث والفداء ، هي مصدر الدين المسيحي القائم على ثلاث عقائد : الام الالهية ، والاله الفادي ، والبعث والخلود .

وفي « الصبي المطوق » صورة ناطقة عن ايمان الريحاني البسيط الخالص من كل شائبة رغم فلسفته الطبيعية احياناً . فهو هنا يروي بسذاجة القروي المؤمن قصة رحيله الى قديس كفيفان ،

برفقة امه وابيه ومعهم النذر من شمع وبخور وحول عنقه الطوق المقدس . ومما قال : « رسمت السيدة شارة الصليب على وجهها ، واعتلت بمساعدة جرجس البغلة،فتمكنت في جلستها،ثم أجلست الصبي المطوق امامها ، هي رحلة العائلة المقدسة . أستغفر الله ، هي رحلة عائلة ترافقها القداسة،وتطوق القداسة عنق صغيرها » .

وحسبنا التلميح الى فصل « بين الشك والايمان » وما فيه من نفحة روحية .

يقول الريحاني في رينان وشقيقته ، وقد لقيا ما لاقى هو من سؤ فهم العامة : « ومما هو جدير بالذكر ان هذين الروحين الصنوين في التفكير الحر ، والمنزع « الكفري » ، كانا يقيمان في ظلال الاديرة والمعاهد الدينية » .

« ... كانت هنريت يومئذ في دير للراهبات تتلقى مباديء العلوم وتتشرب روح الايمان والتقوى . وكانت تدرّجت الى النعمة الخاصة ، فلبست الثوب الاسود والقلنسوة البيضاء لولا أخوها الذي أحبته، وهو في المهد، حباً تولته الأيام فنما والمحبوب معاً . ولقد ود الشقيق بعدئذ لو ان رغبتها في الترهب تحققت لأنها كانت عروس الاحزان .

خرجت هنريت من الدير والقلب منها يتلفت الى جدرانه ، ويرى داخل الجدران ، على مذبح الكنيسة ، الشموع الدائمة النور ، والمصلوب الدائم الكآبة .

خرجت من الدير تحمل مزامير داود ، الكتاب الذي كان

النواة لعرسها الروحي . ولهذا العرس في نشوءه ونموه أطوار خاصة تنكشف في ما نقص عليك من حياتها .

. . . وما كان لهنريت من صفاتها العالية الهادئة ما يساعدها على محاربة التعصب والادعاء في النفس » . أو لم يقل رينان في كلامه على الرسول بولس : آفاتنا تشردنا في الاعمال ، وحسناتنا تضعفنا .

ورينان نفسه « كان قد وطن النفس على الانخراط في سلك الكهنوت، فما سرّت هنريت بذلك. ولكنها احترمت في الصبي ايمانه ، وما فاهت يوماً بكلمة يشتم منها رائحة الشك في ما كان يراه او التثبيط عما اعتزم » .

« ... وكانت هنريت ترقص في قلبها ، بل كانت تدنو في ابتهاجها الروحي الباطني من المدرسة الشرقية ، وان استقرت الغبطة سكوتاً فلسفياً في وجهها وناظريها » .

«... من مزايا الشرق ان ينبغ فيه اشخاص منحوا شيئاً من الالوهة ... » على أن « طرق الالوهية محفوفة بالالغاز والاسرار ...»

« ... إني اتصور هذاالفعل الروحاني كوهيج الشمس ينعكس على بقعة زاهرة بالبنفسج أو الاقحوان ، خلال أغصان دوحة مجاورة يحركها النسيم ، فيرى ذلك الوهيج متموجاً على الازاهير تموجاً لطيفاً ولا يرى له منشأ يلمس أو يحد » .

أو لم تكن السعادة في نظر ارسطو هي المعرفة؟ تلك المعرفة التي فتش عنها رينان وشقيقته طويلاً .

« . . . إني في كل حـال لأميل الى رينان المؤلف « حيـاة يسوع » منّي الى رينان المنقّب في آثار الفينيقيين . إني أفضل الطالب للعلم في البلاد التي كانت مسرح الناصري ومنشأ المسيحية، الناشد روح الحقيقة في سمـاء هذه البلاد ، وفي جوها التـاريخي الشعري ، على رسول امبراطور الفرنسيين » .

أو لم يُصَب قبله الغزالي ، حجّة الاسلام ، بمرض نفساني من جرّاء درسه المسيحة على أيدي الفلاسفة والمترجمين؟ ولم يشفَ من مرضه هذا إلا بعد ان راح يدرسها وينقب عنها في عقر دارها ، في بيت المقدس .

« في مسارح هذا الجمال الطبيعي الالهي ساح رينان وشقيقته، فكانت سياحتهما نشيداً من اناشيد القلب المفعم حبوراً ، وبمثل ذلك القلب نرافقهما الآن من بيت المقدس ، الضاحك من تزاحم آثار الاديان فيه، الى نابلس القائمة الجبين بين جبلي اللعنة والبركة، الى جبل الكرمل وبحر أزاهيرة الف قدم فوق البحر، الى الجليل ذلك الفردوس المنتهب ، الى البحيرة التي لا تزال الحمائم تنوح على شواطئها الكئيبة ، الى جبل الشيخ الناظر بعيني المحبة والغضب الى سهول سورية .

... وإني من هذه المسـافة القصيرة في أرجـاء الزمان أرى تينك الروحين تحت قباء العقل الكلي ، او الضمير الكوني ، او

القوة الروحية المكوّنة، الازلية الخالدة. أراهما تحت ذلك القباء الالهي ، وقد جلسا على سطح البيت بغزير ، يسرحان البصر والبصيرة في مشاهد كسروان الطبيعية وأجواء لبنان الالهية .

ليت شعري ما تفعل الوراثة في النفس، وما تفعل البيئة والتعليم، فهل يستطيع المرء ان يتغلب بقوة الاثنين كل التغلب على إيمـانه الموروث؟ على ذلك الايمان الذي رضعه مع اللبن ؟ ان ذلك النور الذي يعلو وجه الام قبيل الولادة وبعدها، ذلك الوهيج الروحاني يمتزج بغذاء الطفل، فيتغلغل حتى الى ما كان مطوياً من حياة الرجل فيه ، وان صار هذا الطفل ، في مستقبل ايامه ، فيلسوفـاً او حطّـاباً ، فان أثر ذلك الوهيج ، وهيج قلب الأم، وقد انعكس على وجهها ، يبقى هناك في قلبه يستعطفك ويستهويك .

هذا الوهيج الالهي أراه منعكساً في فلسفة رينان، وفي حياة شقيقته هنريت. فانها، وان نبذت الاعتقاد بالخوارق والمعجزات، تحتفظ ليس بروح المسيحية فقـط ، بل بتلك التـذكارات الكاثوليكية التي هي إرثها القروي الديني ، وكأني بهـا تعيد ذكريات تريغيه في لبنان ، وهي تتغلغل واخاها في صميم فؤاد الكون .

هناك على ذلك السطح في غزير ، وفي الأمسيـات المقمرة ، بين أخيلة الشـك ، وأضواء اليقين ، وفي جوّ مقـدس لاسرار الاقدمين وأديانهم، كان الاخوان يتباحثان ويتناقشان في الفلسفة والدين ، فيرتفع عقل الاخ في التحليل ، وترتفع روح الاخت في

بواديها ، كنخلتين سامقتين على جزيرتين متقابلتين ، في بحر من الحب والسكينة ،بل كسنديانتين قائمتين في جوار كنيسة واحدة وتحت نجم واحد ، يشمل الفكر البشري بأبعاده وألوانه ، بأغواره وأنجاده وآفاقه جمعاء .

ما كان اعتقاد هنريت بالله الاعتقاد الذي شاع في عهد الثورة الفرنسية الكبرى وبعده . ما كان إلهها إله فولتير واصحاب الانسيكلوبيدي ، إلهاً خلق الكون واستقلّ عنه ، تركه وشأنه . أو إلهاً تكوّن والكون معاً ، فكان روحه الغائبة ، او النائمة ، او الضائعة . ولا أظن ان هذه السيدة كانت تبعد كثيراً في اعتقادها من الاعتقاد المسيحي الصافي ، المجرد من شوائب اللاهوت .

لقد كان الهها — ان الهك ، يا هنريت ، الهنا ، وان كان في حُجبه لا يُلمس ولا يُرى - بعيداً قريباً على الدوام ، فان في الحجب الرحمة ،وفي البعد المحبة ،وفي القرب الطمأنينة والسكينة .

واننا متيقنون ، مؤمنة كنتِ او غير مؤمنة ، انك كنتِ في حياتك الدنيا ، كما انك الآن وعلى الدوام ، من محبوبات الله .»

أما وقد ماتت هنريت رينان في هذا الوطن ، ودفنت في تربته ، فان اهل عمشيت « يعجبون لمن يجيء بلدتهم سائلاً عن ضريحها ، عن ضريح شقيقة « ذلك الفرنسي الكافر . »

نرى من كل ذلك ان الريحاني تعرض لمشكلات الفلاسفة وخرج منها باليقين .

ولقد تعمدّت طول الاقامة في رحابه المعبّقة بروح الايمان لأظهر للقارىء أولاً ان مرور الامين بالعوالم القدسية لم يكن عابراً ، بل كان استوطاناً مطمئناً هانئاً ، استوطان المتشبعين بالنَفَس الديني الاصيل ، ولأترك للمشككين في ذلك النفس ثانياً ، ان يستمدوا بأنفسهم من تلك الاجواء رأياً غير مفروض ، رأي الاقتناع بروحانية صحيحة وعقيدة خالصة صافية .

هذا ومن أراد الاستزادة من صلوات الريحاني التي تفيض بها روحه المؤمنة ، فليسمعه في قوله أيضاً : « . . . والحلّالون والحلّالات ، سمعتهم يرتلون الصلوات ساعة الغروب ، وهم في عملهم بين الاجران والدواليب ، ترفع جميلة الصوت منهم صوتها بطلبة العذراء ؛ « كيريا ليسون ، كريستيا ليسون ، يا سلطانة العذارى ، ياسلطانة الملائكة . » فيردد العمال ، خمسون او مئة منهم : « تضرّعي لأجلنا » .

فهل يخطر في بالك ، ان في هذا الزمان الصناعي المادي ، المضطرب المضطرم بصراع العمال وأرباب المال ، لا يزال من نسل آدم من يعملون راضين ، قانعين ، ناعمي البال ، ويرتلون فوق ذلك اثناء العمل ؟ »

وفي قوله : « ويقول الفاخوري أبو يسوع لأمين : الانسان من التراب يا أمين ، والذي يشتغل بالتراب هو أقرب الى الله من الذي يشتغل بالحرير .

هذا الفخاري الحكيم اللاعب بالطين ، يعتقد كذلك ان الله خلق آدم من تربة بيت شباب ، من هذا الصلصال الذي تصنع منه القوارير والخوابي ، إنه لمن ألطف اللاعبين بالطـين ، كما انه أكثرهم فطنة وحكمة .

وهو يستمع لكلمات الكاهن في أيام الاعياد والآحاد، فيحفظ منها ما يلتئم وفلسفته، وينبذ الباقي هادئاً ولا ادعاء ولا كبرياء» .

أما حبيب البتغريني ، فهو على ريشة الامين « طبيب مؤمن بالله وبرسله وبقدّيسيه وأوليائه جميعاً » .

ان مثل هذه الصلوات الخافتة المشبّعة بلهب الروح كثير في « قلب لبنان »، الكتاب الذي استثنيناه من بين كتب الريحاني لتلمس النَفَس الروحي عند هذا « المحروم » الهانىء في معتقده .

وإن من يبوح بمثل هذه النفحات المؤمنة ، فايمانه في النفس لا في الشفاه .

إيمان من « آلى على نفسه ألّا يكون من الكافرين » .

« رحم الله من عقد عقدة خالدة في قلب بشري » .

فلنردد مع امين الريحاني ما جـاء في « نجواه » ، في صلاته المعهودة :

« يا ذا الجلال الأزلي ، ألحقني بشيء من جلالك

يا ذا النور الدائم ، أمددني بقبس من نورك

يا ذا القوة غير المتناهية ، ابعث منها في قواي

... إني حيّ فيك ، عليم بنجاويك

أنت الحياة بأجمعها ، أولاً وآخراً ، وإني لأحيا بك

... ساعدني اللهمّ لأجمع قـــواي الروحية ، والعقلية ، والجسدية في سبيل الحق والحب والحكمة

... أنت إلهي : ولا إله لي إلّاك » .

خلاصة

* * *

في العام ١٩٦٥ مر ربع قرن على غياب أمين الريحاني . وقد كنا على موعد مع ذكراه ، حيث راح سفراء الشرق والغرب ، يستعيرون من كتبه الأصوات ، ليعيدوا الى الملأ أصداء تغريده.

لقد ضاق المكان بهذا الاديب ، وقصر عن عمقه الزمان ، وهو الذي أقام من نفسه رسولاً لهذا الجبل الذي ما عرف الانطواء على الذات ، ولا الالتفات الى الوراء ، أو الحط من كرامة الانسان .

أدب الريحاني رسالة حي الى الاحياء. هي حرب على التخلف والقعود ، ثورة تقيم الجديد على أنقاض البالي من الموميا آت ، انفعال بالواقع وتعبير عنه ، حيث جنون الصراع والأحداث العالمية القاسية .

ان الأدب الحديث مدين للريحاني بصرخة من صرخاته الأوَل التي عصفت في المهاجر . لقد تحوّل ، على يديه ، من المذاهب الى الانفلات ، من القيود الى الحرية ، من الضيق الى الرحابة ، من

الجمود الى الحركة . فالذاتية العارية التي ضجت في إنتاج جبران واعضاء الرابطة القلمية وجدت نواتها عنده . أو لم يكن شعر الامين المنثور منفتح الشعر الحي عند الاعلام من شعراء الرعيل السابق . على ان دوافع القومية قذفت به الى رحاب الكون ، فأفلت من حدود المكان والزمان وراح يسجل الكلمة الحق ، أمام وجه الشمس ، فلا هوادة ولا مهادنة .

ولم يشأ أن يستبد به الغرب ، بل أراد أن يكون للوطن العربي النصيب الوافر من جهاده . فطاف في أمصاره ، جاعلاً من نفسه خادماً للقضية العربية ، ومحامياً عنها، ومصلحاً تحررياً لما تركه الاستعمار الغربي في المشارق من هزات وزعازع .

هو صاحب أدب توجيهي نزل الساحة ووضع نفسه في المعترك ، فاذا بأدبه سلاح قوي جاوز به حدود العزلة الرومنطيقية الى ميادين الثورات الفكرية .

فتح عيون الغرب ، العاشية الى الظلام ، على حقائق قومية الشرق وتراثة الحضاري . وقد خشي ان لا يتسرب اللسان العربي الى ما وراء الحدود ، فلجأ الى اللغة الانكليزية يشد بها تلك القومية وذلك التراث .

وكان لا بد ان يسعى في تقريب أوجه النظر بين المسودين العرب ، فراح يحكم العرى بين الآراء ويقرّب المتباعد منها، غير مغفل نواحي التاريخ والجغرافية في تلك الأصقاع التي تجشم

الاسفار اليهـا ، مرتفعاً عن المعهود الشائع من كتابة الرحلات ، ذاهباً تعميقاً في تلك المجالات .

وهو من القلائل الذين أدركوا لعهـده خطورة الاستعمار فناهضه بكل مـا أوتيه من جرأة في التعبير وحرية في القول . وقد دعا ملوك العرب الى الوقوف ، في وحدة قومية وسياسية بوجه الخطر الصهيوني . ومما قال في هذا المجال : « هذا اللبناني العربي يحمل الترس والرمح على معاقل اسرائيل ... على حصون يهوذا . ويلك يا نيويورك ، ويلك اكتبي الحجة لليهود بماء الذهب ، وسجليها في سجل الصيارفة والكهان ، ومثّلي رواياتها بالافلام والكلام ، على الفي مسرح وشاشة . وبعـد ذلك ؟ ماذا بعـد ذلك ؟ ستفيقين ذات يوم قبل صيـاح الديك وستصفرين صفير الهول والهلـع . ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربي البار . الحق اصدق انباء من الدولار » .

ثم أظهر حسنات الاتحاد وقيام الجامعة العربية ، ومن نفثاته في هذا المضمار قوله : « ان الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هي وحدة مقدسة فأوصيكم بها . واعلموا ان لا خلاص للاقليات من ربقة الاجانب أو في الاقل من التدخل الاجنبي الا باتحادهم مع العرب . واعلموا كذلك ان لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة شاملة لغير الحكم المـدني الديمقراطي القائم على العدل والمساواة بالحقوق والواجبات .

...واعلموا وتأكدوا ان في الدولة العربية الكبرى ستضمحل

العصبيات الطائفيـة والدينية كلهـا . او ستنحصر في دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها ، وستقوم مقامها في الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة وقد ارتبطت كلها بالمثل الانساني الاعلى وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الاهالي جميعاً على السواء » .

ان النضال القومي والوطني شغل الريحاني ، كما شغله الاصلاح الاجتماعي الحقيقي الذاهب الى محاربة الجمود . وقد بنى كل ذلك على فلسفة واعية وثقـافة رحيبة وسرد بارع وصياغـة انيقة ونكتة بادية .

هو فاتح العيون على الكثير من مخبآت تاريخنا وجغرافيتنا . يتصدى لعقاب لبنان كاشفاً الستـار عن حقـائق هذا الجبل واساطيره وجمالاته .

وكانت عناية الريحاني بالناحية التاريخية فائقة ، ينفـذ الى الحاضر من خلال الماضي ، فيبني الحديث من العلوم على موحيات القديم . هذا الى عناية بالنواحي الجغرافية والاجتماعية والأدبية ظاهرة المعالم .

ولكتبه التي تمت الى التاريخ والجغرافية والرحلات بصلة غير لون وصباغ ، فأنت هنا معه ، على تنوّع في المشاهد لا يهـدأ ، وشمرل في النظرة لا يضيق ، تمدّه المعاينة والخبرة والمشاهدة ، ويفعمه الرأي والنقد والواقع بالدقة والتجرد والنزاهة .

وقلّما دوّن الأمين شيئاً ولم يكن للنقد الصحيح يد فيـه ، فالواقع الذي يسجّله غـير واقع الأقدمين من الرحّالة ، فهـو

يتجاوز به حدود الفرجــة والدهشة والاستغراب الى منــاحي التحليل والشك والتحرّي .

لقد تخطى هؤلاء بتوسيع نطـاق البحث وإخضاعه للعـلم الخالص أحياناً ، وبالنفاذ الى جوهر القضايا عن طريق الامانة والعمق ، وبالاستناد الى التجرّد عن الهوى والهوس ، وبالتزام الفكرة التي من أجلها كتب وجـاهد ، فالهـاجس الذي ساد فكره سيطر على إنشائه بوجه عام،فكيفما سرت معه ،صدمتك محاولاته في سبيل توحيد الشعب العربي ، والنهوض به من جمود مقوّماته الى حرارة العافية والكرامة .

أما جرأته فلا تقف به عند حـد ، فهو يسخر حيث تدعو السخرية ، ويغمز حيث يدعو الغمز ، ويخلع نقاب التمويه حيث يجب الجهر بالحق. لا يهاب سطوة حاكم، ولا يخشى مغبة إفصاح، فالظلم في شرعه ليس له اسم آخر ، والحرية ليس لها غير وجه .

رسالة الأمين النهوض بالانسانية ، ومن أجل هذه الرسالة جنـّد أدبه الوجداني وطاقـاته وإمكانياته العقلية والمـادية ، فالفساد يجب ان يزول،وسلطان القوي والغني يجب أن يضمحل، والعدالة يجب أن تسود .

ومما لا شك فيه ان ثقـافة الريحاني ميّزته عن سـابقيه من كتّاب الرحلات ، فهو الى الموهبة والأصـالة وقوة الشخصية يجمع سعة الاطلاع وفقه الحركات الفكرية .

ويزين أسلوبه العاري حركة دائمة ، يهزها الجمـال ويحكمها الانضباط .

قال في المطران يوسف جعجع : « وقـد كان ذلك الحبر المفضال مشهوراً بعدله وديموقراطيته وشدة ساعـده ، يشارك عماله في حراثة الارض ، له ضربة معول فـالحة ، وضربة مهدّة تفتت الصخور ، وكان في أحكامه مثله في معوله ومهدته » .

وقال في المطران بولس عقل عند مروره بعمشيت وزيارة والده : « هذا الكاهن هو والد المطران بولس عقل. وفي المطران بولس ، حياه الله ، ووفقنا الى الصواب وإياه ، شيء من صخور لبنان واشياء من ثماره » .

ومثل هذه النبرات « اليكَـنية » لا يحصى في كتب الامين ، وكلها تبوح بدقة الذوق الادبي، ورهف الاحساس الفني العروف بصناعة الترف .

من أقواله وهو يستشعر الخوف عند عبوره وادي الجماجم :

« ... لقد أسرعت في البدء فأخطأت ، إذ ما عتمت ان ثقلت رجلي ، وثقل النفس في صدري ، وثقلت حتى العصا في يدي... فانتفضت إذ ذاك ورفعت صوتي بالغناء ، فعصاني ، على قباحته » .

ومن صوره الخاطفة قوله : « ... وهذا الصبي يحمل الي من خير السنة عناقيد عنبرية وتيناً ارجواني اللون » .

ويصف «لركسينا» الراقصة في دار الاحتفال بعيد أدونيس فيقول : « وقد قرص رجلها النعل : حلّي السير ، حلّيه ، او انزعي النعل واحمليه ، لك رجل جميلة ، فلا بأس بعرضها عارية ، عجلي ، عجلي ... »

وهو القائل : ان في كل اسقف جرثومة بطريكية .

ان الاسترسال في مثل هذه الشواهد التي تثبت رونق التعبير في كتابات الامين ضرب من السذاجة ، لكثرة ما يضج هناك من صور ناطقة تكاد تتحرك على الورق ، فخير سبيل الى استكشاف مخبآته الفنية هو في الرجوع الى تلك الكتابات ، لندرك اذ ذاك كيف استطاع ان يجعل الاسلوب العلمي الجاف اداة لهو وترف فاذا به قريب الى كل قلب .

والريحاني يوجع بنقده فلا يدمي ، وإن أدمى فالجرح غير نازف . وقد تمثلت في هذا الاسلوب شخصية الكاتب خير تمثيل ، فظهرت خصائصه وميزاته بأجلى مظاهرها .

واستعان الامين في كتابة الرحلات بالاسلوب القصصي ، لعظم أثره في الشعوب التي تحن الى ذكر ماضيها ، فالقصة المحبوكة لوّنت علمه وأدبه بجمالات الفن ومباهجه .

على انني كثيراً ما وقفت حائراً أمام تقييم هذا الرجل .

هل أوجد مدرسة ؟

هل هو أديب بقدر ما هو عالم ؟

هل هو عالم بقدر ما هو أديب ؟

هل أومض ؟ أم سار والمشاعل بيديه ؟

إنها حيرة تستدعي في الاهتداء مجالات من الدرس طوالاً .

ومع هذا فيمكننا التقرير أن أدب الرحلة — بفضل اختراعات العصر الحضارية التي قرّبت المسافات وأزالت الحدود وحملت قصي المشاهد الى عقر دارك — لا يدوم اذا اعوزته الطاقة الأدبية وخانه الومض الجمالي .

حسب الريحاني ان تكون مدرسته مجهولة القرار ، وأن يكون أدبه متشابك المعالم ، وعلمه متأشب المظاهر ، وومضه الى غير افق ، ان عوالم الكبار من النوابغ لا تحدد بسهولة . وحسبه من دنياه : انتم الشعراء وقلب لبنان وتعريفه لابي العلاء . واخيراً حسبه الجرأة أخص ميزة في رصيده الأدبي .

سننتظر طويلاً حتى يطلع هذا الجبل ريحانياً جديداً .

رواد الشرق الكبار

هذا الشرق – لا سيما هذا اللبنان – كانا منذ القِدَم ، منذ عهود الفاتحين بالسيف ، الى عصور الغازين بالفكر ، معترك اجنحة ، وميدان سلاح .

من الاعلام الغربيين، من لم يزر المشرق، ومع هذا فقد خلعوا على بعض انتاجهم ، وشاحاً مشرقياً، امثال راسين ومونتسكيو وفولتير .

ومنهم من كان له في هذه الدنيا محطّ بصر ، ولعل فولناي الفرنسي Volney – ابن الجيل التاسع عشر – وهو الاديب الذي جعل الكتابة على الشرق مقصورة على زيارته ، يُعتبر الفاتح الأمثل لكل من حدثته النفس بشك الريشة في مطلع الشمس .

ولولا ذلك لما كان لشاتوبريان وللامرتين ولموريس بارس ولجِرار ده نرفال وسواهم ، شأن في تلمس دنيانا، ولما كان عندنا أيّ صدى – من هذه الناحية – لكتابات الكثيرين من الادباء الطالعين ، والموزعين على بلاد الغرب ، امثال فرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا واسبانيا وانكلترا .

الشرق مهد الانسانية ، ساحة أعتق الحضارات ، والاديان حارس الكثير من المقدسات التي يحج اليها رواد العالم للطواف بها، لولبية فكر سحرية بين اوروبا وآسيا، بلاد الشمس والمنائر ، ولقد شاهد كبرى الممالك في مجدها فتركت بانهيارها، على محياه، الكثير من اشياء عظمتها . كل هذه العوامل كانت تنفتح أمام زوّاره المفكرين ، بما فيها من شعث وجاذبية .

فلمن تحرك في صميمه ظمأ الى الارتواء من مناهل الشرق، كان هذا الاخير ، باضوائه ، واسراره ، وأعاجيبه ، يتدفق امامه بينابيع الخير والعطاء وكأنه حاجة في قلق الانسانية وارتواء في عطشها .

بعض هؤلاء الرواد ، زاروا الشرق ، لغاية في النفس ، او لعدة غايات . شاتوبريان كان يهدف الى ربط معالم الصليبيين عندنا بمعالم بلاده ، والى ايجاد الوان « لشهدائه » Les Martyrs ولانتزاع محبتنا .

ورغبة لامرتين الاولى كانت الأمل في اعادة العافية الى ابنته المريضة جوليا ، يقول : « أنا لا أشك ، في أن سنة أو سنتين تقضيها ابنتي تحت سماء الشرق الحلوة ، تنتهيان بها الى العافية،بعد أن مر عليها ستة اشهر تركت في ذهني أوهاماً سوداء . اني احيي جبال آسيا كملجأ هيأه الله لها لتلاقي عليها الشفاء » .

وفي قول لامرتين : (ان نداءً قوياً يقودني الى المشرق) صدى لرغبة في النفس عميقة .

وفي جون اكدت له اللادي ستنهوب Lady Stanhope أنها من أصل شرقي ، وان وجودها هنا لم يكن إلا بداعٍ من وطنها الأصيل .

وبعد عشرين عاماً على قول ستنهوب ، أكـد لامرتين نفسه أنه من أصل شرقي ايضاً ، وان اسمـه الحقيقي هو « اللامرتين » أي بزيادة أل التعريف التي هي عربية .

لقد أخذ هذا الشاعر بالتوراة منذ حداثته ، وأخذ معهـا بالشرق . وعلى هذا الولع حلم بتفتح عبقريته وبتثبيت ايمانه .

وفي معهد « عينطورا » المسنّ ، غرفـة صغيرة محـدودبة استوطنتها عشرين عاماً في الكدح الفكري ، حملت فوق بابهـا العتيق ، رخامة تشير الى ان هذا الشاعر العظيم اقـام فيهـا عدة أيام .

* * *

ويأتي موريس بارس بهدف غامض فيقول : ألا تزال آسيـا حارسة تقاليد العالم وأحد احلامه ؟ ولهذا سلكت الطريق اليها لأجعل من أوهامي حقائق تضيء ما في رغبتي من ظلام .

أما المؤرخون والبـاحثون فقـد كان لهم أهـداف تتفق ورسالاتهم. من بين هؤلاء الرواد، عدد غير قليل زار عينطورا، لا بل استوطنها زمناً ، يوم كان لبنـــان يفتقر الى الفنادق ، ففولناي نقش اسمـه في احدى شجرات المعهد ، وهكذا فعل

لامرتين ، وعلى الشجرتين أتى الزمن ولم يـأتِ على الذكـرى .
وجيرار ده نرفال قاد « ده فوغه » مع حاشيته الى الاقامـة في رقعة الصنوبر المحازية لذلك الصرح .

و « رنان » وهو يعيد النظر في (حياة يسوع) لم يجد غـير لبنان يلجأ اليه .

ولم تكن بيروت اذ ذاك – المرفـأ المتوسطي الحضـاري الكبير – بسكانها الخمسة والعشرين الف نسمـة ، لتستبد بهؤلاء الرواد ، بل كانوا يؤخذون بجبال لبنان وقراه الجميلة، فيطوفون بنهر الكلب – الحاملة جباه صخوره نقوش الفاتحين – وببكركي مركز البطاركة المارونيين العظام ، وبحريصـا المطلة على اجمـل خليج ، وبغزير حيث كان للآباء اليسوعيين مركز معرفة .

وهذا الطواف بالامكنة الساحرة كان تقليداً مقدساً اكتفى به الكثيرون مما اغضب لوكروا Lockroy القائل في (رحلة الى سوريا) : ان هؤلاء الذين يحازون الشاطىء ويحاولون ارتيـاد الطرقات الضيقة المحطمة تحت ارجل (المكارين) يرتدّون عنها ليزوروا فقط الارز وعينطورا وغزير . ان هؤلاء لا يعرفون لبنان ، يجب ان نقطعـه من كل جـانب ، ان نتسلق جبـاله العاصيات ، أن نهيم في ارجاء لم تطأها قدم ، ولم تُخط فيها طريق . وبغير ذلك لا نستطيع ان نكتشف جمالات طبيعته) .

ومن روّاد الشرق من حمل معه الريشة ، ليعود منه بشيء من موحيـاته . واذا منعت الثلوج لامرتين في زيارتـه الاولى

للبنان ، من الوصول الى مطارح الارز الدافىء في صقيعه َفزَعَ الى مرسليهم ليستطلعهم محياه ، حتى اذا عاد ثانية ، كانت اولى رحلاته الى المطارح المقدسة .

ولم يمنع تطور الزمن عندنا من جعل عينطورا تحتفظ بالتجاء الروّاد اليها ، وقد كان للأب سرلوت صاحب اللحيــة البيضاء الشبيهة بالشلال القسط الأوفر في دعم هــذا التقليد . ولــكن المدنيّة التي أخــذت تشرق على بيروت ، وتنتزع اللبنانيين من قراهم ، بدأت تغيّر وجه السياحة في هذا الجبل . لقــد سهل التطواف نوعاً ، وأخذت المسافات تتصاغر فلم نعد مع لوكروا Lockroy نغالب العقبات تائهين في المطارح المنعزلة ، ولم نعد مع موريس باريس نمتطي الجواد لنصل الى منبع مغارة أفقا حيث كانت تضطرنا الرحلة الى الاقامة تحت خيمة في جوارها ، نصغي في الليل المهيب الى أصوات الأشباح الباكية على أدونيس فيخرير الشلّال .

وكان يقود هؤلاء الروّاد الى عينطورا ذكرى كبار المرسلين الذين سبقوهم اليها ، كأني بهم أرادوا أن يزرعوا الخطى في إثر خطاهم ، أن يشاركوهم في حكاية الكلمة ، حكاية المجــد الصحيح والسؤدد الدائم، أن يحاوروا الأب سرلوت الذيأصبح في نظرهم وجه فرنسا الأسطوري ، فكان لهم بمثابة وسيط وموجّه . حتى أن الكلمة الشائعة في باريس لعهده كانت : لا يزار الشرق دون زيارة الأب سرلوت .

ولقد اعترف بيار بنوا Pièrre Benoit ان زياراته المتعددة للشرق — وقد جــاوزت العشر — لم تتكرر لو لم يكن هنــاك الكاهن الكبير ،لقد كانوا يذكرونه كما يذكرون بيروت وطرابس والأرز وقاديشا وبعلبك وجبيل وصور وطرطوس .

وكم كان عظيماً إيمان هؤلاء المرسلين برسالتهم . قال الأب سرلوت يوماً وهو يقدم معــاونيه الى موريس باريس مشيراً الى واحد منهم : منذ أكثر من خمسين عاماً لم ير وجه بلاده .

ولم يستغرب (باريس) ذلك وهو القائل ان القديس (فانسان) الى جانب باسكال Pascal وجان دارك Jeanne d'Arc وسان لويس St. Louis من الأوجه التي تقدّمنــــا بمجد الى الشعوب .

على أن الحرب الكونية حــالت دون (رجوع باريس) الى لبنان — وهو المهيّأ للبذار ، على حد قول الأب سرلوت — وما كاد غبار تلك الحرب يتلاشى ، حتى أطل على عينطورا في عــام ١٩٢٢ الجنرال غورو Gouraud بصحبة فئة من كتاب فرنســا ممّن حمــلوا السلاح تحت إمرته ، بينهم هنري بوردو Henry Bordeaux وابنته بول Paule والاخوان طارو Tharaud وبصحبتهم الكومندان ترابو Trabaud وسواهم . وكان من مواليد تلك الفــترة (جميلة تحت الأرز) لبوردو ، و (طريق دمشق) للاخوين طــارو . وفي (جميــلة تحت الأرز) جعــل الكاتب بطل روايته أحد طلاب عينطورا القدماء .

وفي العـام نفسه ١٩٢٢ عرفت عينطورا قصّاصة لم يكن الشرق غريباً عنها لأنهـا ولدت فيه ، هي مريام هـــارّي Myriam Harry ابنةُ القدس الصغيرة ، هـاجرت الى فرنسا لتعود قصّاصة شهيرة ، فترى وجه الشرق المتبدل وتضع كتابها (أرض أدونيس) .

وقد كان للعسكريين محطّ قدم عندنا . ومنهم من حمل القلم أمثال جان مليا Jean Mélia .

وفي العام ١٩٢٣ يطل على عينطورا قصّاص فتي ، في عودته من تركيا تلبية لدعوة مصطفى كمال له ، بعـد أن ذكر بلاده في أحد كتبه .

لم يكن يعرف بيار بنوا آنذاك وهو يتسلق عقبات لبنان ، أنه سيعود اليهـا فيما بعـد أكثر من عشر مرات في زيارات متكررة ، ولا تزال احدى غرف عينطورا حتى اليـوم تعرف باسمه. وفي هذا المعهد كتب القصاص الفرنسي قسمين من روايتيه (ربة قصر لبنان) و (بئر يعقوب) . ولفعل لبنان السحري أثر صارخ في خيال بنوا ورواياته ذات الطابع الشرقي : أمثال St. Jean d'Acre : Notre Dame de Tortose, Les environs d'Aden, La Toison d'or.

فلا عجب أن يكون بنوا عـام ١٩٥٠ موفـد المجمع العلمي الفرنسي لتمثيله في الاحتفاء برفع الستار عن تمثال الأب سرلوت في باحة عينطورا ، وصاحب الذكرى رمز المحبة التي أضمرهـا روّاد الشرق للكاهن الكبير .

لا يزال رسم بنوا عالقـاً في ذاكرتي ؛ رأس ضخم وهيكل ضخم وكلاهما على قصر وضمور ، فكأني بابن الرومي عناه بقوله:

اذا مـــا مشى مستعجلاً قيل يدرج



سألته يوماً : هل نظمت الشعر ؟ فأجـاب : لي مجموعة من إنتاج الصبا . ولما سألته لماذا انقطع عن النظم ، أجابني بصراحة الكبار : لأنني شعرت أنني لست بشاعر .

ويأتينا في عـام ١٩٢٦ قصـاص فرنسي مسرحي هو بيـار فروندي Pièrre Frondaie من مؤلفاته L'Eau du Nil la Côte des dieux

وتعرف عينطورا عام ١٩٣٥ سكرتير المجمع العلمي الفرنسي جورج لوكونت Georges Lecomte وجان مارته Jeane Martèt سكرتير كليمنصو Clemenceau مدة خمس عشرة سنة .

لقد كان هذا الوطن في كل عهوده قبلة الأعين من بني الانسانية ولكنه لم يَدُمْ إلّا في أعين بنيه . سنظل نسقي الورق من خمورنا العاتقة حتى يسكر الورق .

ملوك العرب

* * *

تفصيل المحتوى

* * *

الجزء الاول : يقع في ٤٨٦ صفحة ، يضم مقدّمة وأربعة أبواب هي : الحجاز – اليمن – عسير – لحج والنواحي المحمية ، وفيه رسوم بريشة الأمين .

المقـــدمة

تحدث فيها عن هجرته الى الولايات المتحـدة وعن مفهومه آنذاك للامم ، وعن مؤرخي الأميركان والانكليز الذين عرّفوه الى بلاد العرب ، وعن بعض الرحالة المستشرقين . ثم ينتقل الى الحديث عن وطنه ، والشرق وملوكه ورغبته في التعرف اليهم والى أحوال بلادهم المتنافرة . ومما يقول : « هذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من أمراء العرب غير الحسين بن علي ، وكلهم مـلوك وان اختلفت الألقـاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . »

ثم يقول : « لست مبالغاً اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها. » بلى هنالك كتّاب أجانب يضعون الكتب المغلوطة أحيـاناً ليعرّفوا ملوك العرب بعضهم الى بعض . « فها أنا إذن في هذا الكتاب ، ولا فخر ولا اعتزاز ، أُعرّف ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات ،وليتحقق سادتي أن ليس في الثناء في ما كتبت تزلف أو مداهنة ، ولا في النقد تشنيع أو تحامل ، انما غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العـلم والخبر واليقين . »

ويخبرنا الريحاني أن قصده الأول عندما سـافر من نيويورك أن يسيح في الحجاز واليمن ونجد ولكن مشاهداته الأولى غيرت قصده فاشتمل على جميع شبه الجزيرة . ثم يرشدنا الى مـــا في الكتاب من آراء تهم العرب والاسلام وتهم الأوروبيين عموماً والانـكليز خصوصاً .

أما الحقيقة التي في الكتاب فهي غير مجردة ، ألبسها الأقنعة وطلاها بالمساحيق ولكن مثل هذا التستر لا يخفى على المبصرين.

ويختم الريحاني مقدمته بدعوة الى السياحة في « بلاد عجيبة على فقرها ، » لنعود الى « شعب كريم على آفـاته ، والى أمة أبيّة على ذنوبها » ، مخوّفاً أهل الشرق من الروح الأجنبي المندسّ فيما بينهم .

الملك حسين بن علي

* * *

الحجاز : حدوده : يحده شمالاً العقبة وإمارة شرقي الأردن ، جنوباً : القنفذة وجبال عسير، غرباً : البحر الأحمر. أما شرقاً فحدوده مختلف عليها وغير واضحة .

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف وأكثرهم من البدو .

مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع .

أهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والخويطات وبنو ثقيف وسفيان .

الاشراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش .

أهم مدنه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف ، وعلى البحر : جدّة وينبع والوجه .

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع ، والشيعة جعفريون وزيديون .

البدو والحضر : ابوابه: (التلفون في الحجاز – عربية لا رطانة فيها – قدوم الملك – **رسمه وحقيقة محياه** – الديموقراطية العربية – العقال والعمامة – الحضر

والتترك – تقبيل اليد والركبة – المقامات والقبلات – البدو – خشونة الحرية – اللغة التي يفهمها البدو – الانكليز – العرب والاسلام – السوريون في أميركا – الملك يدعوهم الى الحجاز) .

يقول الريحاني في الملك حسين أو الشريف حسين كما يسميه بعضهم : « صافحته مسلماً سلاماً عربياً . . . ولا أذكر بأية كلمة حيّاني ... ان في محيّا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم أشاهد مثله في غيره من ملوك العرب ، بل فيه روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي . ان في وجهه كما في حديثه عنصرين من الأنس والكياسة مما غاب ويا للعجب في رسمه ، الأول أخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي فهو رقيق الأديم صافيه ، عدل الأنف دقيقه ، له جبين رفيع وضّاح . . . وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء » . . . وبعد الاسهاب في وصف المليك العربي وعادات الاستقبال والضيافة عنده ينتقل الأمين الى النقطة الثانية من الفصل المختص بالحجاز وهي :

من الضب الى الطب حيث يتكلم على تبادل المحامد والواجبات ، والانكليز ، والحشرات والدبابات ، ودروس عامة في علم الحيوان وعلى جلساء الملك وندمانه وألغاز الديوان الهاشمي ، والتعقيد في السياسة وعلى بعض القبائل ، والطبابة في بني سعد ، ومما يقول : « ان الملك حسين لشديد البأس ثابت

الجنان . يوم ضرب الأتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت لا يبالي ، أما الأتراك فهم في نظره مثل الحشرات والزحافات التي يرثى لحالها ويستخدمها أحياناً لترويع الناس » .

الابداع في الاصلاح ، يتحدث الأمين هنا عن طريقة الملك حسين في الاصلاح وعن الحجاج ونبي زمزم والمياه المقدسة المعدنية وعن الأوبئة ومراكز الطبابة والمحاجر الصحية ، وعن المعاهد الانكليزية الحجازية ، ثم يتكلم في باب :

تلميذ في البداوة والحكمة على ضيافة الملوك والهدايا وتلميذ في البداوة إذ يقول : « وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل إليّ كسوة عربية وخنجراً مكيّاً، وقطعة مزركشة من ستار الكعبة ، لله درّ قسطنطين يني ، الرسول الأمين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الألقاب ، وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الأعلاق لا يحوزها غير المقربين » . ويتابع الأمين كلامه على المحاكمة عند البدو وطرقها وعلى الطب ونادي الصلاة وبعض العادات .

ويمعن الريحاني في التحدث عن الملك العظيم في باب آخر عنوانه :

بين الاستانة ومكة حيث يظهر فضله الأكبر في الثورة على الترك . ويتكلم على سيرته وإقامته في الآستانة ورجوعه الى

مكة وعلى أحوال الحجاز في مدة إمارته ونهضة الدين والانقلابات أو الحركات السياسية ، ويبلغ الريحاني بيت القصيد في بحثه :

الوحدة العربية حيث يظهر أثر الانكليز في سياسة الشرق وما حدث من معاهدات، ورغبة الملك الأكيدة في تحقيقها. وفي تاريخ نجد الحديث يعود المؤلف الى تتمة الكلام على هذا العاهل الكبير .

* * *

الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

* * *

اليمن : حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الأحمر الى تعز فماويه فقعطبه ، شمالاً : خط يمر في بلاد طولان وبني بشر الى نجران. غرباً: البحر الأحمر من الشيخ سعيد الى ميدي ، وشرقاً : الربع الخالي .

ألويته : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعده .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف المليون .

مساحته : نحو أربعين الف ميل مربع .

أهم قبائله : حاشد ، بكيل ، حمدان ، الحوارثة ، ذو محمد ، ذو حسين ، بنو اسلام ، بنو مطر ، المكارمه .

أهم مدنه : صنعاء ، ذمار ، يريم ، إب ، تعز ، زبيد ، بيت الفقيه ، مناخه .

مذاهبه : الزيدّية ، الاسماعيلية ، السنة (شوافع) اليهود .

تقوم اليمن وراء ستار حديدي من التقاليد والعصبية والرجعية لا يؤذن للاجنبي بالذهاب اليها ولا بالاقامة فيها . وللريحاني فيها فصول منها :

١ – التبليغ في الترويع: حيث يقول على لسان أحد اليمنيين قبل رحلته : نحن أهل اليمن لا نخضع لأحد ، نحب الحرية ونحارب من أجلها ، نذبح أقرب الناس الينا لنكون مستقلين . والذبح عندهم شيء عادي ، فالأجنبي يذبح والسائح المتنكر يذبح « والمسيحي والفرنجي سواء عند أهل اليمن ، وقد يحميه لسانه أو يصرف النظر عنه » ، أما اذا انكشف أمره فيذبح ، كأن الذبح ضيافة أو اكرام كما يقول الأمين . وقد سافر من نيويورك وفي ذهنه « من قصة الذبح ما يضحك ويزعج معاً » .

والانكليز هم أولياء الأمر في اليمن أوصدوا الأبواب في وجه الأجانب ، من هنا كانت رحلة الريحاني الى اليمن محفوفة بالصعاب والمخاطر ، وقد سعى رفيقه قسطنطين يني الى صرفه عن هذه الرحلة فلم يفلح ، وقد غادرا الملك حسين للقيام بهذه المجازفة : أمين « في ثياب افرنجية وعقال يحمل جوازاً أميركياً وقسطنطين في ثوب ملازم في الجيش الحجازي » . وفي عدن استقبلها ضابط انكليزي مظهراً لهما ما يعترضها من مشقات في زيارة المناطق اليمنية .

٢ – في الطريق الى صنعاء : حيث يصف الأمين الرحلة وما اكتنفها من أهوال ، وأطرف ما جاء في هذا الباب وقد أدخل على « السيد الأمجد علي بن الوزير أمير جيش الامام في لواء تعز » . قوله : « صافحناه وهو جالس كأنه أحد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فأشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من أولئك الأجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر ، وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ...

بعد أن سلمنا على الأمير قدمنا له كتاباً من القاضي عبد الله العريشي ، وفيه يعرفه إما خطأ وإما تلطفاً بالسيد أمين الريحاني وفي اليمن لا يدعى سيداً غير من كان من السلالة النبوية ، وليس هناك غير طبقتين من الناس : السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن أو الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم

والحضر) فظنني حضرته من أشراف المسلمين وأراد أن يعرف
الى أي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلاً : هل أنت حسني أم
حسيني ؟ »

ويقول الأمين : « وقع السؤال علي كالصاعقة، فبلبل الخاطر
مني لأول وهلة وعقل لساني، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى
البرق صور كلها سود تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر
على المسيحيين؟ أفلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين؟
وها نحن في مجلس أميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات
السجن أو أشد، وروائحها مثل نظرات أصحاب العمائم بل أحد،
ولا نزال والحمد لله في بداءة الرحلة، وهل أنت حسني أو حسيني؟

جاوب يا فتى ، هل تكذب على الأمير فتنتسب، وما الحسن
وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ أذكر أني في خمس لحظات
غيّرت ديني خمس مرات ، فكنت أنتقل كالبرق من الحسن الى
مارون الى الحسين الى دروين . أما اذا اكتشف الأمير بعدئذ
حقيقة دينك — أصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن أمام
الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك أو مسيحيتك أو دروينيتك ؟
جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء،
وأنا أثناء ذلك أسير خوف أشد من خوفي ساعة أطلق الحواشب
الرصاص ليوقفونا للفطور، وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل
مسعاي ، من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً ،
ولكنه سبحانه ، بعد أن غيّرت فكري خمس مرات في خمس

لحظات، فتح علي فقلت مجيباً: أنا عربي يا حضرة الأمير ، أحترم
كل المذاهب الاسلامية وأحب كل العرب ، وأتمثل دائماً في مثل
هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة
وهوى تغلغل في صميم فؤادي »

والظاهر أن الأمير استحسن جواب الريحاني وذهبت الطامة
المنتظرة .

٣ — اليمن الاخضر القديم : في هذا الباب أحاديث عن
وادي الذهب ووادي نحلان ونجد الأحمر وجبل بعدان ووادي
المرفد وقاع الحقل ويريم والرهائن وذمار وعن الامام وساحة
الاستقبال وموكب الزيود واسماعيل وشجر البن وأمير الجيش
ابن الوزير الثاني وخطبته المدهشة وعن الفسق والزنى المحرّمين في
البلاد ، والجنود وشكواهم والغرض من زيارة الامام والبيوت في
اليمن وعسير والوحشية والاستقلال .

قيل للامين : « ألست رسول الانكليز الى الامام؟ قال : لا،
ولا رسول دولة من الدول . لا ناقة لي في السياسة ولا جمل ،
ولكني أقول : اني أخو العرب ، وصديق العرب ، وأشتهي أن
أراهم كلهم في ائتلاف بعضهم مع بعض . أشتهي أن أرى الأمراء
ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها » .

وقيل له : « يغار أهل اليمن على بلادهم كما يغارون على

حريمهم ، لا حق في البلاد لغير أهلها ، ونأبى الشركة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب ليسلم الشرق ، ونحارب ليسلم الوطن .

٤ ــ صنعاء اليمن : في هذا الباب وصف لقريتي وعلان وحزيز وجبل لقم وصنعاء وجمالها ولجبل عشار وآنس ولمعادن العضة والطلق وبير العزب وللهندسة العربية في البناء ولصنوف الشعب وحصار صنعاء ووقعة شهارة وللحضرة الشريفة وقصة الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام .

وفي وصف صنعاء يقول الريحاني : « ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً . وكلما دنوت منها ، وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة ، فيها الهواء أعذب من الماء ، والماء أصفى من السماء ، والسماء أجمل من حلم الشعراء ، وفيها البرد ، وقد علت تسعة آلاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً . وهي قائمة في قاع ستحان ، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة أخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين ، ثم تحيط بها الجبال دون أن تقصر أرجاءها ... »

ويتكلم الأمين عن أسواق صنعاء وبيوتها وشعبها والمعيشة فيها بدقة وإسهاب يسيطر عليها النهج القصصي الشيّق .

٥ ــ الضيف المأسور : أربعة أيام مضت ولم يخرج فيها الأمين ورفيقه من البيت المخصص لهما إلا مرة واحدة ، ثم عاد

الامام الى صنعاء ، فكانا بعد استئذانه أول المسلّمين المهنئين .
يقول الريحاني : « دخلنا فاذا نحن أمام رجل ربع القامة ،صغير الرجل واليد ، أسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه ، له فم كفم الطفل صغير بارز إلا أن في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده ، وفي عينيه السوداوين القريبتين من أنف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الأحايين روّاعة ... »

وكان الأمين صريحاً جداً في حديثه مع الأمام حول أمور اليمن الداخلية والخارجية .

٦ ــ حكم الامام : في هذا الباب كلام على حكم الامامة القائم على السيف ، وسبب الفتن والحروب وأعداء الامام واليمن في الماضي وعلى أول امام زيدي في اليمن والفرق الزيدية والأئمة الأقدمين واليمن الأكبر والقرامطة وأول دخول الأتراك وأول ثورة عليهم وخروج أشراف أبي عريش على امام صنعاء وخروج لحج وعدن من حوزته ورجوع الأتراك سنة ١٨٤٩ وانهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ ثم سنة ١٨٩١ وعلى الامام المنصور واحمد فيض باشا والامام يحيى وثورة ١٩٠٤ وحصار صنعاء والصلح وثورة ١٩١١ وعزت باشا ومعاهدة ١٩١١ ورجوع الامام الى شهارة والحرب العظمى ورسوله الى لحج والانكليز وكتاب ملوك العرب وأعداء الامام في الحرب والتجائهم الى الملك حسين والسيد الادريسي والشوافع والعشار .

ثم يخصص **٧ – للضرائب والسلاح :** وما يتفرع عنها

٨ – وللشمائل القدسية : التي يتحلى بها الامام فصولاً ضافية فيها الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية والعادات والتقاليد .

ويتحدث الأمين عن الأهمية التي يعلقها الامام على الحديدة فهي في نظره « أهم من المدارس وأهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، وأهم من سكك الحديد والامتيازات » . واذا ما زار الامام الريحاني في المنزل المخصص له كان أول ما دعاه اليه هذا الأخير « فتح البلاد للتجارة والسياح ، لأن اليمن لا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً وثيقاً » . واذا :

٩ – الجو ينجلي : بين العاهل والأمين فتدور أحاديث لها أهميتها بالنسبة الى مقاصد الريحاني وقضايا البلاد بالنسبة الى الانكليز والملك حسين .

١٠ – وفي المخيم المنصور : يتحدث صاحب ملوك العرب عن تأثير الدين في الأخلاق والقرابة بين عقيدة الزيود وعقيدة بعض البروتستانتيين وعن الضيافة العربية ، ويصف الامام في مخيمه ومساجلات الشعراء بين يديه وما له من رقيق الشعر . « وانك لا تجد في ملوك العرب اليوم من هو أعلم من الامام يحيى في الأصول الثلاثة : الدين ، والفقه ، واللغة ، ولا من هو أكبر اجتهاداً وأغزر مادة منه » .

وبعد ان يخصص الامين فصلاً في :

١١ – الزيود واليهود : يعود ثانية الى :

١٢ – المسألة السياسية الكبرى : الحديدة ، فهي « كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء ،هذا يبغيها ولا ينفك يطالب بها ، واولئك ، وقد وهبوها صديقهم الادريسي، يودون لو كان بامكانهم ان يهبوها كذلك الامام » . « والحديدة من المدن العربية المشهورة ، كانت عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الف » . ويذهب الريحاني في سرد تاريخ الحديدة وعلاقتها بالاتراك والفرنسيين والانكليز وما قام فيها من معاهدات وحمايات ، وفي :

١٣ – تتمة المفاوضات: يتابع الامين التحدث عن المنافسات السياسية وتطاحن المصالح الاجنبية فيها :

وينتهي في فصل :

١٤ – المعاهدة : باثبات صورتها كاملة وما فيها من دعوة الى توحيد السياسة وقد تم الاتفاق عليها مع حضرة الامام وهي في مجملها تحفظ حقوق اليمنيين بالنسبة الى الاجانب والى ملك الحجاز .

* * *

السيـــد الأدريسي

* * *

بلاد السيد أو ما يحكمه الادريسي من عسير .

حدودها : غرباً : البحر الاحمر ، شمالاً ابو متنه على البحر ، جنوبـاً : الحـُديدة ، شرقاً : جبال اليمن .

سكانها : نحو مليون نفس .

مساحتها : تمتد ٣٥٠ ميلاً شمالاً بجنوب، ومعدل عرضها غرباً بشرق ٧٠ ميلاً .

أهم قبائلها: رجال المع والمسارحة وبنو مروان والقحراء وبنو هلال وبنو عبس .

أهم مدنها : صبيا ، جيزان ، ميدي ، اللحية ، الحديدة ، أبو عريش ، باجل .

مذاهبها : السنيون : شوافع . الشيعـــة : جعفريون واسماعيليون .

يخص الريحاني هـذه البلاد بخمسة عشر فصلاً ، ندرك من عناوينها أهمية مـا دار فيهـا من دراسات (بلاد السيد ، سطح اليمن ، الى الحدود ، نساء تهـامة ، الحديدة أديان وأشجان ،

احمد بن ادريس والتصوف ، على ظهر البـاخرة ، جيزان ، بين الامامين ، المعاهدة جوار وسادات ، تجارة الرقيق ، خطوات الى الوحدة) .

كانت خطة الامين في السفر أن يزور الامام يحيى في صنعاء ثم يسافر منهـا الى الحديدة ليزور السيـد الادريسي في عسير ، « ولكن الامام والسيد اعداء والبلدين في احتراب » ، « امـا الانـكليز ، فاذا كان لا حق لهم في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان يمنعوني من الدخول الى بلاد صاحبها حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلاً في يدهم » « والادريسي لا يركن الى أحد قادم من عند الامام » .

ويأخذ الكاتب بتصوير الصعاب والمخـاطر التي اعترضتـه وأحاطت به وهو في رحيله من ديار الامـام الى بـلاد السيد ، وبرسم مشاهد العمران ومظاهر الطبيعة التي مر بهـا من ابنيـة وجبال وقرى وسهول ورياض ومياه وحيوانات .

هذا جبل عصر والنبي شعيب وشبام وبوعان والمقيل وهذه متنة والسامرية ومناخه « القائمة على قنة جبـل حراز التي تشبه صهوة الفرس » .

وبرفقة الأمين الى السيد الادريسي ، يظهر : أشكال العرب والشبـان المخضبون والشعور الطويلة والـتزين والسفور والمرأة والحناء والكحل والطيب وتبدو : شمس تهامة وباجل وسوقها

ونساؤها وضيافة الشوافع والرهائن وهنالك أطياف الليل
والفجر والبحر والحديدة بتاريخها .

« ضربت الحديدة مرتين من البحر ، المرة الأولى سنة ١٩١٢
في الحرب التركية الايطالية، والمرة الثانية سنة ١٩١٨ في الحرب
العظمى » وفي وصف أهلها وآثارها المحزنة يقول : « ميل في
الناس ولا حجة ، أمل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا
قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نية . وبنايات في المدينة ولا
سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج ،
وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، وأخشاب تحت
الردم وآمال ... الحديدة التي كانت من أجمل البلدان العربية
وأكبرها تجارة هي اليوم مجردة عن الاثنين ، فريسة الحرب هي
وفريسة السياسة . »

ويتطرق الريحاني الى الناحية الفلسفية في حديثه عن الأديان
فيجول في أبحاث حول الحياة الأبدية وسر الوجود والخلود
والتصوف والعقل والروح والتوحيد وما أشبه،ثم يفرد للتصوف
فصلاً مشيراً الى بعض أعلامه من الأدارسة من مثل السيد محمد ،
وعبد الوهاب التازي ، والمجيدري وسواهم ، ومن المغربيين الذين
جاؤا مكة للحج أمثال محمد السنوسي ومن اليمنيين أمثال عبد
الرحمن الأهدل مفتي زبيد .

وللأدارسة في عسير فصل طويل يطلعك على الرسالة الروحية
والحكم أيام ابراهيم باشا المصري وانتشار الوهّابية وثورة الأهالي

على الحكم المصري الحجازي ، وانتشار الطريقة الأحمدية وخروج
المصريين من البلاد وحكم الشريف حسين ورجوع الأتراك سنة
١٨٤٩ وإمام صنعاء والأساكل البحرية ، وأشراف أبي عريش
والأدارسة في السودان والتزوج بالجواري العبيد والسيد محمد
الكبير وأخلاقه ومصادر قوته ومعاهدته مع الانكليز ... وعلي
ابن محمد الادريسي وشجرة بيت إدريس التي تبدأ بأحمد وتنتهي
بحسن . وعدد أسياد البيت الحاكم في عسير ١٤ والامام الحالي هو
علي .

وجاء الجواب من الامام مرحّباً بالأمين . فها هو على ظهر
الباخرة — بعد أن تركه الرفيق قسطنطين وعاد الى أمه —
يصف لك من وسط البحر الأحمر الشاطىء والجزر ورفقة الرحلة
حتى اذا وصل جيزان صور المدينة وقلعتها وتجارتها وزوّارها
وتاريخها في أيام الحرب ، أما سيد ما في جيزان من حركة خفية
وقطب الأريحية فيها فهو السيد الادريسي . يقول الريحاني « جاء
رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه، فركبنا الـ « موتر »
(السيارة) وسرنا في أسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون
وراءَنا ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ربوة
تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور
فرقة من الجنود الادريسية أصحاب الشعور المنفوشة والصدور
المكشوفة والبنادق المشوفة » . . . وبعد عبور عدة أروقة
والوصول الى الساحة المفروشة بالسجاد اذا به « بحضرة الامام
جالساً ، ووراءَه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص . وقف

لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . . . وكان في المجلس ساعتئذ السيد
السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم . . .

رأيتني لأول مرة أمام سيد من السود ، أمـام زنجي يسود
مليوناً من العرب وفيهم ألوف من السليلة النبوية . وقرّ التقزز
لأول وهلة في نفسي،ولكنه لم يكد يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت
الى حديثه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجـل
معجباً به . كان جاحظ العين صغيرهـا ، رفيـع الجبين ، دقيق
الأنف ، عريض المنكبين، طويل القامة ، ضخم الشفة والرقبة ،
مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، شديد البأس واللهجة والغضب .

شكرته على ما لقينـاه في الطريق منـذ دخولنـا بلاده من
الحفاوة والضيافة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل
في جانب ما تسعون اليه . أنتم تسيحون في البلاد العربية لخيرها
وخير أهلها ، وتقاسون المشقـات من أجلهم ومن أجلنـا نحن
حكامها ، فتستحقون أضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليه
فقلت : وأنا كذلك أقوم في رحلتي بما أعتقده واجباً علي . إني
أشعر بأن في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . . .
وان كثيرين في بر الشام من قحطان من بني غسان مثلي فقـال :
ونعم النسـب ، غسان ، ريحانة العرب » .

ثم دارت الأحاديث حول شؤون البلاد وعن أميركا والوحدة
العربية ، ويختم الأمين هذا البحث بمـا ترك السيد الادريسي في
نفسه من انطباعات طيبة .

أما قضية الوحدة فيجتزئها الريحاني في حديثه مع الامام إذ
يقول له: «اذا أصلحتم بين الملك حسين وسلطان نجد فهو لا شك
يسعى ليصلح بين سيادتكم والامام يحيى ، فيتم إذ ذاك الاتفـاق
الرباعي ، أو المحالفة الرباعيـة ، وهي كما أظن حجر الزاوية في
الوحدة العربية» . ويسترسل الأمين في إزالة سوء ظن الادريسي
في مقاصد العرب ، بعد أن تفرقت كلمتهم إبان الحرب العظمى :

« كان السيد الادريسي يدرك أمرين في حيـاته جوهريين ،
أولهما أنه قوي في ذاته ، وثانيهما أن ملكه ضعيف بين أقوياء هم
أعداؤه » .

وفي حديث « المعاهدة » بين الامـام والملك حسين يشرح
الكاتب علائق الدول العربية بالأجـانب قبل الحرب الكونيـة
وبعدها والبنود التي يجب أن تقوم عليها تلك المعاهدة .

وللامين في « جوارٍ وسادات » أقوال شيقة تتناول أخبار
العاصمة والجواري ومظـاهر الطبيعة كما له مناقشات فكرية
مع العلماء . من أطرف ما يقول : « وفي تهامة مظهر من مظاهر
المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الأرض ، خلال شقوق
في التربة رملية ، فتتسرب الى مسـافة خمسة أميـال في بعض
الأماكن، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة، تجف في الصيف
مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجـة اذا علقت السيارة فيهـا
استحال على غير الجمال جرّها منها » .

ومن جميل أوصافه قوله : « هوذا السراب ، وقد تراءى لنا

بعيداً فظنناه لأول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب
اليها مياه البحر ، او لساناً من البرّ امتدّ اليه ، وكانت أكواخ
القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الأشجار . ظلال في
المياه ، ولا مياه ولا ظلال ، اما لون السراب فكان أشبه بلون
السماء منه بلون البحر ، لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها
واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه
السماء . ولما دنونا منها بدت أكواخاً لا ريب فيها ، وكانت المياه
أي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب
رويداً رويداً عن الأبصار . »

وبعد ان يخصص الريحاني لتجارة الرقيق فصلاً متطرقاً
كعادته من صلب الموضوع الى اشياء شتى تاريخية وجغرافية
واجتماعية (من مثل حديثه هنا عن الحكومة الانكليزية في عدن
والحكومة الفرنسية في جيبوتي وسلطان تاجورا وبلاد الحبشة
ومصدر التجارة ، والنخاسة بين التحليل والتحريم والأرقاء
والأشراف) ينتقل الى آخر فصول هذا الباب الخاص بالأدارسة
فاذا به « خطوات الى الوحدة » ، حيث « تنتهي مهمة الأمين
السياسية في اليمن وعسير » الهادفة « الى خدمة الامام بتقريب
قضيته من فهم البريطانيين ومصلحتهم ، وبتقريب البريطانيين
من عقلية الامام وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي » .
ثم اقترح الريحاني : « ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه
الآراء ويتعارفون ويتفقون ، فأبى حضرته لأسباب أدركها ولا
سبيل الى تداركها . ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله ،

وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي لا يعترف به
الملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز
بكل من اليمن وعسير في البداءة ولو بخيط من حرير ، لاعتقادي
ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة ، فلم يوقع واحدة
منها ، ولا اظنه ادركها ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف
الامام يحيى ولا السيد الادريسي بأن الملك حسين هو ملك
العرب ، ولكنهما مدّا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها . من هو
حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟ » .

* * *

سلاطين ومشايخ لحج
والنواحي التسع المحمية

* * *

حدودها : جنوباً ساحل البحر العربي ، من باب المندب
الى بَلحاف ... شرقاً : حضرموت ، غرباً :
البحر الاحمر . شمالاً : البلاد التي يحكمها
الامام يحيى .

مساحتها : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع .

سكانها : نحو ثلاثمئة الف نفس .

أهم قبائلها : العبادلة ، اليوافع ، آل فضل ، العوالق ، الحواشب ، الصبيّحة .

أهم بلدانها : شقره ، الحوطة ، بلحاف . ولحج وأبين وأنصاب ومسيمير وحبان .

مذاهبها : السنة : شوافع وحنفيون . الشيعة : جعفريون واسماعيليون وزيديون . وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى . وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام .

للريحاني في هذا الباب سبعة فصول هي : الثالوث المادي في عدن ، من أجل شركة الهند ، سلاطين لحج ، لحج في الحرب العظمى ، التمدن الحديث في لحج ، النواحي المحمية ، لائحة المشاهرات .

يتحدث الامين في الفصل الاول عن تاريخ عدن الداخلي واستقلالها وعلاقتها بالانكليز والفرنسيين والاتراك ، وعن المعاهدات والمشاهرات والتدخلات فيها وعن شعوبها وأديانها وتجارتها وعن الثالوث المادي : البرق والنور والبخار ، وعن الاستعمار وسياسة التفريق .

وفي الفصل الثاني يتحدث عن المسئلة الشرقية التي انتهت بمؤتمر لوزان وعن دفاع انكلترا عن الدولة العثمانية وخوفها من محمد باشا وقد استولى بواسطة ابنه ابراهيم على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن ، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ واخراج ابراهيم باشا من سوريا ومن اليمن ، وعن احتلال الانكليز لعدن سنة ١٨٣٩ ، ومعاهدتهم مع سلطان لحج وبنودها حيث تتمثل مرونة الانكليز السياسية بقولهم للسلطان : « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذه عنك » تلك المرونة التي لا يحللها الانكليز في بلادهم ، واخيراً عن توسيع المنطقة المحتلة . وفي الفصل الثالث يذكر الريحاني انه في سنة ١٧٠٩ كان حاكم عدن مستقلاً عن امام صنعاء . وبعد ٢٦ سنة من ذاك الحين استولى على عدن اول سلطان من سلاطين لحج فأسس سلطنتها ، وكان قائداً من قوّاد الزيود فأتخذ المذهب الشافعي شأن أهل البلاد .

وتعاقب بعده السلطان محسن بن فضل العبدلي الذي أجرى المعاهدة بينه وبين الانكليز فالسلطان فضل بن علي محسن فالسلطان احمد بن فضل الذي اتفق وامام صنعاء على الاتراك واجرى الاتفاقات السرية بينه وبين الادريسي ، فالسلطان احمد اول من سعى في سبيل الوحدة العربية ، وسافر الى مصر ، وشجع الزراعة في لحج ، فالسلطان علي بن محسن بن فضل ، فالسلطان العالي الذي حسن علائقه مع الانكليز وفاوضهم بخصوص معاهدة جديدة . ويتحدث الريحاني أخيراً عن مطامع

العبادلة في النواحي المحمية ، وطريقة الوراثة في الحكم وتدخل الانكليز وعن العقال وانتخاب السلطان ، وفي هذه النقطة الاخيرة يقول الريحاني : « ان ولي العهد وهو ينتخب في عهد السلطان الحاكم ، يصبح منذ ذلك الحين مقيداً بالسياستين : سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين : ارادة المعتمد وارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائرة مثل الاولى ، هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها، لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها للتدخل في شؤون البلاد » .

وفي الفصل الرابع يروي الأمين تاريخ لحج ابان الحرب العظمى حيث يتطرق الى ذكر جزيرة الشيخ سعيد وضربها واحتلالها من قبل الانكليز واحتجاج الامام يحيى وزحف الاتراك على عدن وتأخير النجدة الانكليزية والى وقعة الدكيم وتدمير لحج ووصول النجدة الانكليزية واطلاق النار خطأ على السلطان ورجاله والى الاسرة المالكة في عدن والمهادنة بين لحج وعدن .

ثم ينتقل الريحاني في الفصل الخامس الى الكلام على التمدّن الحديث في لحج، وفي الفصل السادس يخص النواحي التسع المحمية بنبذة تاريخية ملوّنة الجوانب حيث يتحدث عن سياسة الانكليز والمعاهدات الولائية ودور الولاء والعطاء والحماية « اما الذين عاهدهم الانكليز من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات

وسلطنات وبسطوا الحماية البريطانية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجنوبية من اليمن الأسفل » وهم : الصبيحة (عشائر متعددة) ، آل فضل او الفضلي ، العوالق ، الواحدي ، العوازل ، اليوافع ، العلوي ، القطيبي ، الحواشب ، العقارب ، الضالع .

ملوك العرب

* * *

الجزء الثاني : يقع في ٤٧٠ صفحة ويضم خمسة ابواب هي :
١ – السلطان عبد العزيز آل سعود (نجد) . ٢ – احمد الجابر آل الصباح (الكويت) . ٣ – الشيخ خزعل خان (عربستان). ٤ – آل خليفة (البحرين) . ٥ – الملك فيصل بن الحسين (العراق) .

السلطان عبد العزيز آل سعود

* * *

نجـد : حدودها : شرقاً : خليج فارس . . . شمالاً : منطقة الحياد ... غرباً : من جبل عنيز الى شرقي الاردن، ومن شرقي الاردن الى آخر الحجاز الجنوبي الغربي . . . جنوباً : عدة أقطار .
وقد اعتور حدود نجد منذ عام ١٩٢٢

– عهد تدوين ملوك العرب – بعض التطور .

عدد سكانها: نحو مليوني نفس .

مساحتها : نحو خمسمائة الف ميل مربع .

أهم قبائلها : مطَير ، حرب ، عتَيبة ، شبيَع ، الدواسر ، العجمان ، العوازم ، السهول ، بنو مرة وقحطان .

أهم مدنها : الرياض، برَيدة، عنيزة، حايل، ترمده، شقرا، المجمعه، حريمله، الهفوف، القطيف .

مذاهبها : الوهابية والشيعة وبعض السنة .

ان العقبات الثلاث التي وقفت بين الريحاني وبين ابن سعود : الحمى والجدري والانكليز ، قال : نجـد ، فقالوا : العراق . وجاء الاذن بالسفر فكان على الأمين أن يذهب أولاً الى بمباي وينتظر هناك قبل الرحيل الى البصرة ، على ان « رغبته بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات » ، فقد « وصل العراق وقلبه يحدثه بنجد » ، « ولما فتح بابها لغير الانكليز » . وفي عاصمة العباسيين زار الملك فيصل وقابل السيدة جرترود كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية فأطلعته بصراحة محدودة على بعض ما يهمه من الامور وسكتت عن بعضها الآخر ، ولما أرادت معرفة حقيقة الغرض من رحلته جزى على ابتسام بابتسام .

وبلغ الأمين أن السلطان عبد العزيز راغب في الاجتماع به فسُر بذلك وذهب الى البحرين لأنها باب نجد الشرقي . . واذا برسالة تأتيه من العاهل السعودي يرحب به فيها بمقدمه اليه .

وللريحاني أقوال هنا شيقة يستطلع فيها محيا هذا العاهل المهيب .

« وكان سروره في خروجه من البحرين مثل سروره في الوصول اليها . وكيف لا وكل خطوة الآن تدنيه من البغية القصوى » .

وبعد ان يصف الأمين مشاهداته في الطريق يقول: «دخلت الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وانا في بهجة مَن حققت الايام حلماً من احلامه ، فها هي الصحراء ، وهوذا الهجين ، وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها انا ذا جار لأمير من أمراء العرب ، لسلطان نجد ، ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : مَن الربع ؟ ثم أناخ عند نارنا رجلان ... من رجال السلطان ، جاءا ينبئاننا » بأنه قادم الينا، «وبعد هنيهة ضجّ المكان بموكب السلطان، فأناخ عندنا، على أكمتنا، حول شراعنا الصغير ، مئتان من الركائب ، وهي تزبد وترغي إخ — إخ — وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل ، ثم نصبت الخيام ، وشبت عشرات من النيران ، وسمعت على الفور المداق في الأجران .

خرجنا نبادر الى استقبال الزائر الكبير ، فاذا هو قد خف

الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته ، قبّلت الزائر وهو الذي شاء تلطفاً ... أن يعكس الآية ، وكانت المشاهدة الاولى على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المتقدة حولنا».

وتبودلت الاحاديث في جوّ من الود والسماح ونوقش الموضوع في الجلسة الاولى ، وما كاد الأمين ينتهي من كلمته : ان أمراء العرب في عزلة بعضهم عن بعض حتى قال سلطان نجد : ومن هم العرب حنّا العرب : « قال ذلك وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران . » ثم تابع : لك يا حضرة الاستاذ ان تتكلم معي بكل حرية .. قالوا لنا عنك الكثير. «فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه، واذا كان فيه ما ينفع فنعرف أيضاً كيف ننتفع، ونحن أعلم بمهمتك، بارك الله فيك » « العرب يا حضرة الاستاذ لا يعرفون إلا مصلحتهم ، وغالباً لا يعرفونها فنعلمهم بها ونكرهم عليها ، وقد قاسينا كثيراً في سبيلهم ، وكانت الخيانة في أقرب الناس منهم الينا » .

وكانت نتيجة هذه المقابلة قول الريحاني : « ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل » .

ويعود الأمين الى حديث السياسة مع السلطان فيتناول شؤون الانكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من انكليزيتهم حتى في البادية وسياسة اميركا وأمور العرب ، ويسهب في وصف هذا العاهل فيصوره بعينيه وعصاه وطيبه ، في حالتي الرضى والغضب فالورد والنصل على شفتيه ، وينتهي الى قوله فيه : « مهما قيل في

ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء ، رجل كبير القلب والنفس والوجدان ، عربي تجسمت فيه فضائل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا ، وتجسمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول ان يخفيه رجل صافي الذهن والوجدان خلو من الادعاء والتصلّف ، خلو من التظاهر الكاذب . »

ثم يتحدث صاحب ملوك العرب عن مؤتمر المحمرة والمعاهدات بين نجد والعراق وعن السياسة الانكليزية فيها ، وعن اجتماعه بالمندوب السامي وعقد أول جلسة من جلسات مؤتمر العقير وأمور البترول .

وفي نجد « العدل أساس الملك » يقول الريحاني : « ما وجدت خارج نجد بلاداً تتمثل فيها هذه الحكمة ذاك التمثل الصحيح الشامل ، ذاك التمثل المعجب المخيف معاً » ويطول حديثه حول عدل ابن سعود والشرع والمذهب الوهابي وعرب البادية والأمن والصلاة وما الى ذلك من سياسة ملك وتقاليد وعقائد .

والوهابيون هم « الاخوان » « هم الفئة المحاربة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المدّينة جديداً في الوهابية ، الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل من البدو الجاهلين ، فدّينوا ، أي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين » . والاخوان ثلاثة أصناف : المجنون ، والمتعصب ، والمتساهل ، « والسلطان عبد العزيز امامهم في كل شيء » .

أما الشعر « فلا يزال له مقام في نجد وان رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه ... وفي القصر بالرياض فوق الابواب في رواق المجلس العام ، كتبت على الحائط بخط رديء أبيات منها :

اذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه
فواعجباً ان سالمتك الأباعد

وفي ذلك دلالة على ما قاساه السلطان من ولاء الأقربين . على ان السياسة في نظره فوق الجنسيات والمذاهب . ويدور الكلام هنا على سجايا اهل نجد فهم يلبون النفير وقلما يكلفون السلطان شيئاً من النفقات وعلى الفقر والقناعة فيهم .

ويختصر الأمين نتيجة أحاديثه مع سلطان نجد حول الوحدة العربية في النقاط التالية :

١ — « هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها ... »

٢ — « واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته ... »

٣ — « واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي ... فهو ينضم اليه ... »

٤ — « واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها ... »

وغشي الرعب الريحاني في رحلته العربية ثلاث مرات . يقول :

« أول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنـا عساكر الحواشب وأطلقوا النـار ليوقفونا من أجـل الفطور ، وخفت ثانية على حريتي في الأقل ، خفت ان أُعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماوية : أحسني أنت أم حسيني ؟ وثالث مرة يئست من رحمة الله عندما دهمتني الحمى في القصر بالرياض ، فكنت أسيرها أياماً ودرجة الحرارة تهمس في أذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء » .

وللامين بعد ذلك بحث شيق يطوف فيـه حول قرى نجـد واصفاً أحوالهـا فمن الدرعية المشرفة شمـالاً على جبـل طوَيق وجنوباً على اليمامة ، بجدرانها المتداعية ورسومها العـافية ، وجسورها المتهدمة بين القصور وآبارها التي ردمها الزمان :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة   للجن بالليل في حاناتها زجلُ

الى العيينة التي « هجرتها السواقي الخفية » . لقـد كانت من مدن نجد العامرة يوم فرّ هارباً منها محمد بن عبد الوهاب ولجأ الى الامير سعود بن مقرن . . . اما اليوم فقبور الصحابة فيها وديرة مسيلمة. الى الحيسية الى بلاد الوشم « ذاك القاع الكائن بين وادي حنيفة ووادي السرّ . . . ان الوشم مشهور بقصوره ومزارعـه وتاريخه وتقاليده » . الى ترمدا « الكثيرة القلبان ، فان الماء المالح والمـاء القراح يجريان فيها جنبـاً الى جنب تحت النخيل . سكانها من بني تميم » . اما نساء ترمدا « فيكرهن الاقامة فيها ، رجال ترمدا لا يعدلون في النساء ... لا يستطيعون ، لذلك نرى نساءهم ، والحبل على الغارب ، في كل مكان » . على ان الامير

القحطـاني أكد للامين ان نسـاء شقرا « مقصورات الطرف لا يبغين خارج السور بديلاً . ثم قال : اذا دَيَّنت يا أمين نعرسك ببنت من بناتنا فتقيم عندنا وتتحقق قولنا ، ونعطيك مع البنـيّة بيتاً وذلولاً ، ونعلمك الغزو وضرب السيف » .

ويذكر الريحاني منفوحة بلدة الاعشى وها هو « في الطريق التي أكلت قديماً نعال الشعراء في « الديرة » التي زانها يومـاً من قال : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » . ثم يقول : « لست أدري اذا كان سقط اللوى هاهنا أو في ذا الجوار ، واذا كانت حومل والدخول بين ترمدا والنقود . ولكن هذ لولاً وهو شاعر يقول ان الى يسارنا على مسيرة نصف ساعـة بلدة تدعى أثاثية مسقط رأس الشاعر جرير ، وان بين ترمدا وأثاثية مرات بـلد امرىء القيس .

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم أصيب بأدبه كما أصيب بارضه ، فياله من مجد عفت رسومه » . ويتابع الريحاني تطوافه فاذا به في القصيم وقاع العوشزية وعنيزة بسحر نخيلها وسوقها وعاداتها ومـا في قصورها من نقش على الجدران وهندسة عربية وتساهلهـا الديني « فلو جاء خليل النصراني اليوم لاكرمه أهلها » ثم يذكر اميرها خالد آل سليم وينتهي الى وادي الرّمة فعين ثميد فالاسياح حيث لا ماء الا في الحفر فالدهناء التي يقول فيها الشاعر :

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم
ويخرجن من دارين بجر الحقائب

فالى الكثير من قرى نجد التي يلفّها الامين برائع وصفـه ، وشيق معلوماته ومشاهداته ، ولطيف أقاصيصه وحكاياته .

ويختم الريحاني البـاب المختص بنجد وملحقاتها بالحديث عن الخفَر وديرة بني هلال وسواهما من القرى النجدية متطرقاً الى حروب القبـائل وهبوب الرياح الاربع التي تحترب في الخفـَر . يقول : « أدلجنا من مناخ ، وما هي الا ساعة حتى انبلج الفجر وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت » .

احمد الجابر آل الصباح

الكويت : حدودها : شرقاً : خليج العجم .

مساحتها : أربعة الاف ميل مربع .

عدد سكانها: نحو مئـة وعشرين الف نفس منهم ثمانون الفاً في مدينة الكويت،والباقي من العشائر خارجها .

أهم مدنها : الجهرة ، جزيرة فيلكه ، الدمنة ، الغنطاس ، ابو حليفة ، الشعيبة .

مذاهبها : اهمها السنة ثم الشيعة وقليل من الفرس والمسيحيين واليهود .

يستقل الامين سيارة أرسلها الشيخ احمـد اليـه لتحمله الى الكويت بعد ان علل النفس بقطع الصحراء راكباً الذلول مع القافلة حيث « لا اهمية للانسان والحيوان في القفار . او ان الاثنين واحد في فسيح مهالكها » . وبعـد ان يلج سور المدينة الكبير بأبوابه الثلاثة يقول في وصف الامير : « الشيخ احمد في العقد الرابع من العمر ، ربـع القـامة ، دقيق الملامح ، حسن الخلق والبزة ، لطيف الاشارة والحديث وهو أقرب في هيـأته الى الشكل الآري منه الى السامي . فلو كان في غـير النعل والثياب العربية لظننته هندياً من البنجـاب او اوروبياً من بلاد الاسبان » . ثم يقول : « هنـأني بوصولي واعرب عـن دهشته لسفري في البلاد العربية هذه السفرة الطويلة ، ثم قال : العرب انفسهم يكبرون هـذه الطريق ويخافونها ، ومنهم من لا يقوى على تحمل مشقاتها وكيف تحملتم ركوب الذلول كل هذه الايام ؟ نهنئكم يا استاذ ونرحب بكم » .

فتن الريحاني هناك بمفاجآت الترف والرفاهية لكنه فوجىء عند وصوله بحمى أصابته وألزمته الفراش مدة قصيرة .

أما تاريخ الكويت « فغامض مجهول . وقد لا يكون لها ما يهم منه قبل ان هجر اليها آل الصباح قادمين من جيبر منذ نحو

مئتين واربعين سنة ... وكانت هذه الناحية يومئذ لبني خالد فجاء آل الصباح وسكنوها بإذن منهم » .

يروي الامين هذا التاريخ بتفصيل وما حدث فيه من فتن بين الاخوة والانسباء ومن تدخل اجنبي لا سيما الانكليزي منه . وها هم امراء الكويت من آل الصباح :

١ – الصباح الاول حكم في القرن الثاني عشر للهجرة والمرجح انه توفي سنة ١١٩٠ .

٢ – عبد الله الاول توفي سنة ١٢٢٩ هـ .

٣ – جابر بن عبد الله (جابر الاول) تولى الحكم سنة ١٢٢٩هـ.

٤ – الصباح بن جابر (الصباح الثاني) « « « ١٢٧٦هـ.

٥ – عبد الله بن الصباح (عبد الله الثاني) « « « ١٢٨٣هـ.

٦ – محمد بن الصباح « « « ١٣٠٩هـ.

٧ – مبارك بن الصباح « « « ١٣١٣هـ.

٨ – جابر بن مبارك (جابر الثاني) « « « ١٣٣٤هـ.

٩ – سالم بن مبارك « « « ١٣٣٥هـ.

١٠ – احمد بن جابر الحاكم الحالي « « « ١٣٣٩هـ.

ويتحدث الريحاني عن مشكل الكويت في التجارة المتبادلة بين الكويتيين والنجديين وعن الوساطات التي قام بها بين الشيخ

احمد وسلطان نجد لاصلاح هذه المشكلة ، ويذكر معمل الشراع ومصنع السفن واستخراج اللؤلؤ .

ثم يصف الشيخ احمد الرجل المسالم وادخاره القوة في اللين واعجابه بالمدنية الغربية ومداراته للانكليز ويذكر امتياز البترول والشركة التي يفضلها وثروة الكويت الحقيقية والمدارس والنهضة الادبية فيها ورسل العلم والتهذيب اليها .

الشيخ خزعل خان

عربستان : (مقاطعة في ايران) .

حدودها : غرباً : المملكة العراقية وشط العرب . شمالاً : مقاطعة بوروجيرد وغولبكيان . شرقاً : الحدود الاصفهانية . جنوباً : الخليج الفارسي .

عدد سكانها: نحو من نصف مليون نفس نصفهم عرب والنصف الآخر فارسي .

اهم قبائلها : الحاسبي ، الكعبي ، المحيسني ، العامري ، والعوامر يدعون انهم من نجد .

اهم بلدانها: عبّدان والمحمّرة .

مذاهبها : الشيعة .

قل من لا يعرف الشيخ خزعل كما يقول الريحاني . « من اجمل ازاهر الكرم في هذا العربي تساهله وهو شيعي المذهب... قال: لو كان لي ان ارجع بعد الموت الى هذه الارض لما احببت ان يكون ذلك الا عندما تصبح ولا أثر فيها للتعصب الديني . الانسان اخو الانسان احب أم كره » . ويقول الامين : « هو ذا الامير العربي الذي كنت متردداً في زيارته بالمحمرة . وقد ترددت لسببين اولهما لأن المتأدبين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائد المديح الطنانة ، ولست لسؤ الحظ ممن يحسنون النظم ولا المديح الرسمي ، وثانيهما انه حاكم بلاد أطلق عليها العرب في الماضي اسم الاهواز وهي اليوم عربستان من اعمال فارس ، على ان رغبتي في الاجتماع بأمير عرفته من اخباره انه فيلسوف الامراء ، بل فيلسوف الحياة العملية، كادت تتغلب على اسباب التردد كلها ... » وقيل لي ان للشيخ خزعل ستين امرأة وانه قلما يعرف اولادهن . كثيراً ما يجيئه احد اولئك الصغار فيسأله قائلاً : ومن هي أمك يا ولد. ثم اذا ناوأه أحد مشايخ القبائل وهمّ بالخروج عليه ، وكانت له بنت ... يزوره السردار « ويشرفه بالمصاهرة فتخمد فيه في الحال جذوة التمرد والعصيان. سألت عنه وأنا في البصرة فقيل لي هو متغيب اليوم، فقلت : واين هو ؟ فقال محدثي : راح يتزوج وهو لا يزال على سنّه التي تتجاوز الستين اهلاً لمثل هذه المهمات » .

« والشيخ خزعل في العقد السادس من العمر ، وهو ، بالرغم عن الطبيبين في معيته ، على جانب متين من الصحة والعافية ،

إلا انه يشكو يومئذ من اسنانه ومن الطبيبين معاً .

— سمعت الناس يشكرون أطباء الاسنان في اميركا ، وقد قال لنا احد افاضل الاميركيين ان أطباء الاسنان هناك وباعة الخيل وسماسرة البورص من طبقة واحدة ، فلم نفهم كلامه ،فهل لك ان تشرحه لنا .

فقلت : اما باعة الخيل فالمشهور من أمرهم هو انهم مثل من يبيعون المعاليق في حماة فينفخونها قبل ان يزنوها . اما سماسرة البورص فلهم في اميركا اسم آخر فيه أظن الشرح الذي تبتغيه ، فهم كما يدعونهم هناك أصحاب الدلو الفارغ ، أي أنهم يتاجرون بلا شيء ، فيبيعون زبائنهم ما لا يملكون من الاسهم ، وكذلك الزبائن يبيعون ويشترون . هو ضرب من لعب القمار ، يكثر فيه ما هو محض سر من الاسرار .

— وأين وجه الشبه بينهم وبين طبيب الاسنان !

— وجه الشبه في المبدأ . المبدأ واحد هو الوهم والاحتراف به ، هو الهواء في المعاليق ، وهو الدلو الفارغ او الهواء في الدلو ، فاذا رحت الى طبيب الاسنان تشكو من وجع في ضرس واحد يقول لك بعد الفحص انك جبار لأنك لا تشكو إلا من ضرس واحد ، وان بقية أضراسك في حالة مفجعة ، فيقنعك بما أوتي من علم ان معالجتها كلها لازمة ولو اقتضى ذلك شهراً من العمل ، وإلا فتمسي بعد أشهر وليس في فمك سن واحدة . »

آل خليفـــة

البحرين : حدودها : جزر في خليج فارس .

مساحتها : أربعمئة وخمسون ميلاً مربعاً .

عدد سكانها : مئتا الف نفس .

أهم مدنها : المنامة ، المحرّق ، الرفاع ، الحد ، البدّيع .

مذاهبها : السنة من المذاهب الاربعة ، الشيعة من الجعفريين والاسماعيليين ثم الوهابية ، وفيها عدد كبير من الهندوس والفرس وبعض النصارى واليهود .

يضم هذا الباب سبعة فصول هي : (١) سلسلة من المدهشات (٢) مهد الحضارة والشراع (٣) البحرين (٤) البحرين في التاريخ الاسلامي (٥) آل خليفة (٦) الشيخ عيسى والانكليز (٧) النهضة الوطنية .

١) يقول الريحاني : ما أخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأي بالبحرين ، وما دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي اول يوم في هذه الجزيرة .

... ان البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق

والشطر الشرقي من شبه الجزيرة . ويصح ان يقال فيها من هذا القبيل انها سوق من اسواق نجد ، لأن قسماً كبيراً مما يدخل اليها من الهند وايران والعراق ومن اوروبا واميركا عن طريق الهند يباع في نجد .

... وفي البحرين ... نهضة أدبية اجتماعية مباركة ...

وأغرب ما في البحرين ان النساء المحجبات يشمرن عن السيقان كالرجال (في خوض المياه بين الشاطىء والجلابيت) لا أظن ان مشهداً من مشاهد الرقص في باريس او من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد رفع ستاره للشمس والسماء . بيد ان مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة ، فلا سبيل للهمس ، ولا باب لما ساء من الفكر والايماء . لم أتمالك مرة ان اظهرت دهشتي وبيدي آلة التصوير ، اذ رأيت احدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف ، خذ صورتها ولا بأس ، فصورت آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

... نزلنا في المحرّق وسرنا الى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ... وهو شيخ صغير القامة ، قصير اللحية ، طاعن في السن ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، فأجلسني في مجلس من الحجر الى يمينه . هو الشيخ عيسى بعينه ، رحب بي ولامني لأنني نزلت في المنامة ولم أنزل في المحرّق ضيفاً عليه .

وعندما حدث الأمين الشيخ عيسى في السياسة قال له هذا الأخير : « هؤلاء العربان لا يفهمون ، ونحن لا نتكلم في السياسة امامهم ، نمشي الى البيت فنتحدث هناك » .

ومما قال الريحاني له: هل تلبون دعوة الملك حسين الى اجتماع يعقد في مكة من أجل البحث في شؤون العرب والاسلام ؟ فأجاب الشيخ قائلاً : اذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها .

(٢) قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري ، وان سكانه الأقدمين أي سكان الجزر فيه هم اول من رفعوا شراعاً في البحار ، واقتحموا أخطار الأسفار ، فمارسوا الملاحة وأتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب ، وقال آخر : ان الفينيقيين هم من هذه الديار العربية ... ومن الأثريين من يقول : ان القرنة أي البلدة الكائنة عند ملتقى دجلة والفرات اليوم هي المكان السعيد العالي الذي سقط منه الأبوان الكريمان ، هي جنة عدن ... ولا تزال شجرة الخير والشر قائمة فيها ، ومثمرة ، حتى اليوم ...

... ان في التاريخ القديم إشارة أخرى الى فينيقية البحرين فقد كتب احد القواد المقدونيين ، عندما جاء الى خليج العجم من قبل الاسكندر مستقصياً طريق الهند، انه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج ، ثم جزيرة تدعى نيرين ، وهي على ما يظهر دارين العرب ، ولا تزال قربها اليوم أسكلة بحرية تدعى جبيل . فضلاً عن ذلك ان على شاطىء عمان الشرقي بلدة

كبيرة اسمها صور . . . على ان الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم . . . الى البحر المتوسط . واذا كان يريب القارىء شيء من ذلك فلا مجال على ما أظن للريب في احد أمرين : إما ان الفينيقيين من أصل عربي ، وهم مثل العرب ساميون ، إما ان العرب من أصل فينيقي . فاذا صحت رواية رولنسون — الذي يرى ان هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة الى البحر المتوسط هو منذ خمسة آلاف سنة — رجحت القضية الاولى، واذا صحت رواية قائد الاسكندر رجحت الثانية . اما اذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعاهدهم كلاهما في هذه الجزر وهذا الساحل العربي من الخليج .

... لا أعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية. اما اكتشافه وأول من تاجر به من الرجال ، وأول من خدع به امرأة ، وأول من تحلّى به من النساء فتلك أمور اجهلها . وقد يكون فاتني ما قاله الأثريون والمؤرخون والروائيون في اول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها،واول من صاغها واستغوى الغواني بها ، جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب أُوفير ولم يذكر على حد علمي لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال .

ان اللؤلؤ مصدر الثروة في البحرين . . . وقد اجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم مثلما اجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاءً وحسناً سائر اللآلىء .

ولا بأس ونحن في الموضوع ، من الالمام بسيرة هذه المخلوقة العزيزة الغالية .

... اللؤلؤة بنت المحار ، بيتها الصدفة ، وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الانسان .

... هي في يوم الولادة تلقي بيضها الاصفر على وجه الارض في قعر البحر ، وهو مثل حب الخشخاش يتجمع حفنًا فيتلوّن منه القعر ، ثم تنشأ البيضة فتغدو كحبة العدس ، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة الى الازرقاق ، تنمو حتى تصير كالأنامل طولاً وهي دقيقة كالشعر ، شديدة كحبل من مسَد وترسب عروق الصدفة فتثبت في مكان صلب من القعر . ومنها ما يطفو فيتحرك بحركة البحر ويتفرق بعضها عن بعض ، بل يظل يتدحرج حتى يلقى صخرة أو شجرة او مكاناً صلباً من القعر تدق اوتادها فيه، تمكن عروقها منه . وهي لا تأخذ بالنمو الا بعد ان تنتهي من الدوران ، وتثبت في مكان ، فتفتح اذ ذاك فمها أي صدفتها للغذاء وجله من الطين ... في هذا القول من الشعر اكثر مما فيه من العلم، أما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي ان اللؤلؤة بنت مرض يصيب المحار ، او بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الافراز فيه ، والذي يظنه علماء الحيوان هو ان حبة رمل او بيضة او حشرة تدخل مع الغذاء فتتهيج منها اغشية المحارة فينتج عن ذلك إفراز طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة ... وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية

يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبأرواحهم .
ويأخذ الريحاني هنا بعرض شيق لاساليب الغوص متطرقاً الى ذكر الامكنة التي يكثر فيها اللؤلؤ ذاكراً اراء علماء الغرب في هذا المجال واراء القزويني من علماء الشرق .

٣) ان البلاد الواقعة على الساحل الغربي الشرقي كله ، من البصرة الى عمان ، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين ، وقد اطلق العرب الاسم عليها لأنها على ما اظن على شاطىء البحرين ، بحر عمان وبحر فارس ، وجعلوا عاصمتها هَجَر ، ثم خص هذا الاسم بقسم منها بين القطر والقطيف وهو الاحساء ، لان الطامعين بالسيادة من امراء العرب تنازعوها فتقاسموها، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلا مسمّى ، وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان . وموضوعي الآن الجزيرة نفسها الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها مئة ضعف ، هي جزيرة صغيرة ومع ذلك كبيرة ... كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي ...

انها جوهرة في جيب الخليج ... مركز للتجارة والحرب ... من مدن البحرين المنامة ميناء الجزيرة ... والرقاع مدينة الامراء ... والصُخير حمى الصحة والسكينة ... وفيها جبل الدخان ولا دخان فيه ... والبديع عقر الدواسر ... والمحرّق عاصمة البحرين ... الحد وفيها السادة العلويون ... ومنها مياه غزيرة وآبار .

٤) أما البحرين في التاريخ الاسلامي فقد اعتمد الريحاني في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين تأليف الشيخ خليفة بن محمد النبهاني ، وقد تناول النقاط التالية : البحرين مستعمرة فارسية حاكمها وسكانها من العرب ... النبي يبعث العلأ الحضرمي ليدعوهم للاسلام... عبد قيس ووائل وتميم يسلمون ... الردّة الذين حاربهم العلأ من جديد ... ثم جاء خالد بن الوليد – اجابة لطلب ابي بكر – ينجده ... تأديب أهل البحرين وقد فر الكثير منهم الى الجزيرة ... فتح قطر وبلاد فارس...البحرين في حكم الامويين... وفي حكم العباسيين. صاحب الزنج الذي قتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة الف شخص ... القرامطة ... وفي تاريخهم يقول صاحب ملوك العرب : « بعد مقتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ تنفست بغداد الصعداء ، ثم ظهر في سنة ٢٨٧ ابو سعيد القرمطي . ويا لهول القرامطة ، جاء ابو سعيد حمدان من خوزستان الى العراق فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميته لحمرة في عينه (اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين) فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل فخفف الاسم بعدئذ فقيل قرمطة. وكان ابو سعيد قرمطة من الزاهدين المتقشفين ومن تلامذة عبد الله القداح الاهوازي الاسماعيلي الذي اسس في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بينالعرب والعجم والتأليف بين الاديان كلها أما مقاصدها السرية ، السياسية والدينية ، فقد ظهرت على يد القرامطة بأفظع مظاهرها ... ان حركة

القرامطة ، اصلاً وفعلاً ، هي حركة ايرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب... هي فتنة على العباسيين ... ومن اهم العوامل في سقوط الدولة العباسية .

وتوالت الفتوحات في البحرين فمن الامارة العيونية الى عهد المغول ، فبعد مائة عام من عهد هؤلاء جاءت الليالي ، ليالي الدمار والبلاء ، بابنها الثاني تيمورلنك فكمل اعمال جده جنكيز خان . ومن نقاط البحث الاخيرة : البرتقاليون في البحرين ... الاتراك يخرجون البرتقاليين من البلاد العربية ... الانكليز يساعدون الاتراك ... الفرس في البحرين ... مستعمرة فارسية ... فساد الحكم الفارسي وتلاشيه ... آخر عامل من عمال الشاه .

٥) وفي كلام الريحاني على آل خليفه يعالج النقاط التاريخية التالية : تجارة اللؤلؤ ... آل خليفه في الزبارة ... فتح البحرين ... ظهور ابن سعود عبد العزيز الاول ... سلطان مسقط ... البحرين بين الاثنين ... سلطان مسقط يستولي على البحرين ... رجوع آل خليفة الى الزبارة ومفاوضتهم لابن سعود ... النجدة من نجد ... ابن عقيصان ينتصر ويؤمر نفسه ... آل خليفة عند ابن سعود وآل خليفة عند سلطان مسقط ... الرجوع الى البحرين واخراج ابن عقيصان منها ... العدو في قطر ... ابن عقيصان وأرحمه حليفان ... الحرب بين اسطول الحليفين واسطول البحرين ... أرحمه وابن عقيصان ينجوان على لوحة من خشب ... أرحمه وسلطان مسقط

حليفان ... الهجوم على البحرين ... أرحمه ينكسر ثانيــة ...
أرحمه يعيد الكرة على البحرين ... الفتنة في بيت آل خليفة ...
حزب آل عبــد الله وحزب آل سلمان ... الشيخ محمد آل
سفيان ... آل عبد الله يستنجدون ابن سعود ... الشيخ محمد
ينتصر على اعدائه ... اسطول البحرين وتدخل الانكليز ...
« احرقوا اسطولكم ونحن نحميكم » ... النزاع بين الشيخ محمد
وأخيه علي ... الفتنة ... المدرعات الانكليزية في البحرين ...
نفي الاخوين ... الشيخ عيسى بن علي .

نرى من هذه العناوين اهمية البحث الذي يجول الريحاني في
شعابه كاشفاً النقاب عن تاريخ البحرين المتضارب المتجزىء .

٦) ثم يخص الامين الشيخ عيسى ببحث مستقل متطرقـاً الى
علاقته بالانكليز فيفصل النقاط الآتية: الطريقة المثلى في التاريخ،
فقد استلم الشيخ عيسى (ابن الشيخ علي آل سلمان آل خليفة)
زمام الملك بيد الحزم والتدبير ، فدانت له القبــائل والعربان ،
ونشر رايات العــدل والامان ، وقمع بسيفه البغاة والعدوان ،
وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين... سجاياه ... كرمه...
وفاؤه ... اخلاصه للانكليز ... ثباته على العهود ... مدحت
باشا والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة...اعتراف الانكليز
باستقلال البحرين... مساعي الانكليز في تقويض الاستقلال...
الحوادث عدوة العهود ... ثــلاث حوادث خطيرة ... وكالة

سياسية بريطانيـة في البحرين ... حرق الاسطول ... عزل
الشيخ عيسى ...

٧) وينهي الريحاني هــذا البــاب بفصل عن نهضة البحرين
الوطنية مستنتجاً ان العرب هم الذين جنوا على انفسهم .

الملك فيصل بن الحسين

العراق : حــدوده : شمالاً جبال أرمينية والاناضول . شرقاً بلاد إيران . جنوباً خليج فارس . جنوباً بغرب : البادية وحدود نجــد . غرباً : البادية وحدود الشام .

ألـويتــه : الموصل ، السلمانية ، كركوك ، شبه لواء إربل ، ديالي ، بغداد ، الكوت ، الدليم ، الحلة ، كربلاء ، العمارة ، المنتفق ، البصرة .

عدد سكانه : نحــو مليونين وتسعمئة الف نفس منهــم مليون ونصف من الشيعة ، ومليون ومائة وخمسون الف من السنة ، والباقون من اديان مختلفة .

مســاحتــه : نحو مئتي الف ميل مربــع .

شعوبه : العرب والفرس والاكراد والاشوريون والاتراك والارمن .

أهم قبائله : المنتفق ، بنو لام ، البو محمد ، ربيعة ، تميم ، الدليم ، عنزى ، شمَّر ، الاقرع ، عفك وما يتفرع منها كلها من الافخاذ والبطون العديدة .

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين .

السنة : حنفيون وشوافع وحنابلة .

المسيحية: يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان كاثوليك وروم ارثوذكس وبروتستانيون . ثم اليهود والصابئة واليزيدية والبارسيون والهندوس والبهائيون .

يضم هذا الباب عشرة فصول هي ١) من العروبة الى التغرب (٢) لا حكومة ولا انتداب (٣) مآدب الغم (٤) الثورة في العراق (٥) عاش الملك (٦) المعاهدة (٧) اصحاب المعالي (٨) اصحاب القوافي (٩) حجر الزاوية (١٠) عود الى الوحدة العربية .

١) يصف الريحاني في هذا الفصل رحلته من عدن الى العراق

وكان لقاؤه الاول بالعاهل العراقي : الامير فيصل بن الحسين بن علي بن نُمي ، ابن بنت الرسول ، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى ، ممثل العرب في مؤتمر فرساي ، حامل لواء الوحدة العربية في اوروبا ، حاكم الشام ، ملك سوريا ، ملك العراق ! قد تتبعت وانا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ ، تاريخه القصير المجيد ...

٢) يحتوي هذا الفصل على النقاط التالية : بركان الثورة ، الملك في يد الأطباء ، سقوط وزارة النقيب ، عيد الجلوس غير المأنوس ، اتحاد الاحزاب ، مطالبها ، ملحق من النهضة الوطنية العراقية ،استعباد الف سنة واستعباد سنة واحدة ،وفد الاحزاب في قصر الملك ، وصول المندوب السامي مهنئاً بعيد الجلوس ، الشعب يصيح : ليسقط الانتداب ، ليسقط الانكليز ، مطالب زعماء النجف ، عريضة العشائر ، عزل رئيس الأمناء ، الفرق بين السر أرنلد ولسون والسر برسي كوكس ، اقفال الاحزاب الوطنية ، نفي الزعماء الوطنيين ، الامة ساكنة ساكتة وحجج الاسلام لا يحتجون ، تأسيس حزب وطني معتدل ، سياسة الملك فيصل ، لا حكومة ولا انتداب .

٣) من نقاط هذا الفصل : حديث الملك: « سمعت الانكليز في العراق يقولون : هذا فيصل الذي أقمناه ملكاً ينقلب علينا في السنة الاولى » ... وعد المستر تشرشل ... المعاهدة ... الانتداب ... فضل الحكومة الانكليزية في تتويج فيصل . . . الشيخ خزعل ... السيد طالب النقيب... الملك بين جبلين ...

الملك محاط بالأعداء ...الفرنسيس والاتراك والعجم وابن سعود : « ليدافع عن البلاد من يبغي احتلالها » . . . الكآبة والغم : « اني اعتقـد ان في الملك فيصل مزية روحيـة تحبب اليه المثـل الأعلى في الحياة، على انه وان كان ملكاً يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل من تعشق الـكمالات ، وسعى اليها جاداً ، فرآها كقوس قزح بعيدة دائماً عنه ، وهذا في نظري احد اسباب الغم ، رفيق جلالته الدائم، وان توارى احياناً عن الأبصار، هو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب وخطورتها ، فيكون في الملوك وان ندر ، أشد منه في غير النـاس . » ... مأدبة ملكية ... حديث الخواتين الانكليزيات... سكوت الملك... احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق ... مأدبة في الهويـدر « بلدة على شاطىء النهر» ... الطيور والازهار وانواع الثمار والملك الكئيب « وجلالة الملك ، لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافـق صاحبه الى البساتين في أجمل بقعـة من ارض الله . غم لله من يجلس فوق العرش ويلصق بصاحب العرش حيثما حل وحـال . لله من غم لا يحترم حتى الانـكليز ، وقد يكون له في الانكليز ما يرويه ويغذيه . » . . . مأدبة الملك الخاصة . . . سؤال في التطور والانقلاب ، وقد أجاب الريحاني عليه بقوله : « اني ممن يعتقدون في النشوء والارتقاء في الطبيعة ، وفي الاجتماع ، وان التطور معراج الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت وان الطفرة محال ، وان للثورات دائماً فعلاً يعود بالناس الى ما كانوا فيه ، وغيرها في هذا الباب ... »

ويختم صاحب ملوك العرب هذا الفصل بقوله : « لا أظن ان ما يسود فيصلاً من الغم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا أظن ان تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب ، ان فيصلاً ، في ما لمع من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الاخيرة ، لمن الأمراء القليل عددهم في العـالم اليوم . فقد دانت له سـاعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم يتمكن لسرعتها وتعددها من الانتفاع بها . هو ذا أمير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة ، حولهـا دائرة حمراء من السيـاسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية ، وهذه لعمري حقيقة مآدب الغم ، مأدبة الشهرة يتلوها وجع الرأس ، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل السياسة ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية » ... « ان تلك الحوادث التي كان الأمير فيصل قطب دائرتها ، هي جزء من سيرة حياته التي أصبحت جزءاً من التاريخ العام . »

٤) ان الشهر الذي استقرت فيه السيادة الافرنسية في سوريا لشهر شؤم على السيادة البريطـانية في العراق ، فقد اختـار الافرنسيس تموز ، شهر الحرية ، ليقاوموا شعباً مجاهداً في طلب حريته ففازوا ، وقد حاول العراقيون في هذا الشهر ان يخرجوا البريطانيين من العراق فلم يفلحوا ، وكانت الثورة قـد اشتعلت وتأججت في أنحاء العراق كلها . من النجف الى يعقوبة ، ومن المنتفق الى الموصل وبلاد الاكراد .

٥) يعالج الريحاني في هذا الباب مؤتمر القاهرة الذي هيأ فيه المستر تشرشل المعاهدة والاستفتاء والمبايعة والتتويج وتهليل الأمة والصحافة .

٦) ثم يخص « المعاهدة » بفصل مستقل يتحدث فيه عن عجز الحكومة ، والضرائب ، وحيرة الأمة ، وقنوط الانكليز واعترافهم بالخطأ . ومن اهم نقاط البحث : معاهدة تثبت الاستقلال ، لا صراحة ولا ثقة ولا يقين ، لا حرية ولا اتحاد ، الوزارة الجديدة ، بعض بنود المعاهدة ، حكومة اميركا تحتج ، خلاصة المعاهدة ، توقيعها ، المحتجون في بيت النقيب ، سقوط الوزارة ، وزارة السعدون ، المعاهدة وملحقاتها في الوزارة التالية، المعاهدة في المجلس التأسيسي، سياسة الضغط والارهاب، امضاء المعاهدة ، شكوى الأمة واحتجاجها .

٧) أما النقاط الهامة في الفصل السابع فهي : تاريخ العالم منذ سقوط حواء الى سقوط الاتراك ... اهل العراق...المشانق والكراسي الكهربائية . . . أغراس النخل والزراعة . . . المجتهدون الوطنيون... النادي العراقي... الطاولة الخضراء . . ترجمة عبد المحسن بك السعدون ... وزارته واعمالها ... نفي زعماء الشيعة ... مطالبهم ... الوزارة الجعفرية ... الجيش العراقي ... لجنة تدقيق المعاهدة ... مطالبها ... الثابت في الوزارات العراقية ...

٨) لولا الشعراء في العراق لسئمت السياسيين ، ولولا

السياسيون لفررت هارباً من الشعراء . وبكلمة لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين .

نرى ان الريحاني يتطرق هنا الى حديث الشعر والشعراء فلا عجب ان يخص شاعر العراق الكبير معروف الرصافي وفيلسوفها الزهاوي ، بالقول المسهب ، ففي الاول يقول : « نام معروف الرصافي في الفريكة في خيمة الناسك المشرفة على الوادي ، وأكل من جفنته ، وشرب من ابريقه . . . حمل على السياسيين في العراق ، الوطنيين منهم والانكليز ، وحمل كذلك على الأغنياء والأعيان ، وشكا الدهر والزمان ...» وهو القائل:

سكنت الخان في بلدي كأني   أخو سفر تقاذفه الدروبُ
وعشت معيشة الغرباء فيه   لأني اليوم في وطني غريبُ

وفي جميل صدقي الزهاوي الذي لا يمدح بالأجرة يقول : «ان له منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه احد بها . فهو في علمه، وفي شعره ، أقرب نوابغ العرب الى المعري أبي العلاء . أوليس شبيهاً بصوت صاحب اللزوميات صوت من قال :

نَمْ بعيداً في خلوة الأحداثِ   من رغاء الخطوب والأحداثِ
إنما الموت خير ما خلفته   لبنيها الآباء من ميراثِ

ثم يذكر من العلماء الشعراء كاظم الدجيلي : فيلسوف ينفر من الخيال ، وشاعر يهوى صدق المقال وليس في ظاهره ما ينبىء بوجود الشاعر فيه او الفيلسوف ، ومجيد الشادي وروفائيل بطي ابن خلكان العراق .

٩) ومن (أصحاب القوافي) ينتقل الريحاني الى السياسيين والمدارس العالية والعامة في العراق . ومن أهم نقاط هذا البحث : مساعدات الحكومة للمدارس الخاصة، الحاجة الى معلمين ،طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، لا حياة بغير العلم ، العلم اساس العمران، العهد العلمي مصدر الاعلانات، تعليم الأميين ، المدارس الليلية المجانية .

١٠) وينتهي الأمين في خاتمة « ملوك العرب » بعودة الى الوحدة العربية،ومما يقول هنا : اذا كنت تصفحت هذا الكتاب ايها القارىء ، وما جاء فيه من المباحث السياسية ، تجد من نفسك ميلاً،مقروناً بالعلم الذي لا يشوبه شائب الغرض والتحزب لتتبع هذه المباحث .

... من عقبات القضية ان حاكمي البلدين ، السلطان عبد العزيز ، والامام يحيى يحكمان حكماً مذهبياً — اذ ان المذهب الديني في شبه الجزيرة لا يزال متغلباً على الدين — فلو فرضنا ان اكثر الاقطار العربية دانت لابن سعود فيظل القطر اليماني عاصياً خارجاً محارباً . ولو فرضنا ان الامام يحيى اكتسح الاقطار الغربية والجنوبية كلها فبسط سيادته من حضرموت الى الطائف ومن نجران الى جيزان وتقدم طالباً تحقيق الوحدة كلها فانه ليجد في نجد سدّاً لمطامعه عالياً منيعاً . هذا هو الداء الاول ومكروبه المذهبية . فهل تحقق أماني الوحدة او بعضها يا ترى

اذا قتل المكروب او عُزل في الأقل من السياسة ؟ ان نجاح القضية لا يتوقف على الاصلاح وحده .

ان روح القبائل لا تزال سائدة في البلاد العربية ومتغلبة في اكثر اقطارها على الروح القومية . . . هذا هو الداء الثاني ومكروبه العصبية .

ثم يتحدث الريحاني عن الوحدة الجغرافية المفقودة اليوم في بلاد العرب ، فلا أمل للعرب مع هذا في تحقيق الوحدة العربية الكلية ولكن من الممكن في نظره ان يتفاهم الملوك ويتآلفون ، فيفترض لهم الأمين الشروط المنطقية التي توصلهم الى الوحدة المرجوّة المرتقبة .

قلب لبنان

* * *

تفصيل المحتوى

يضم كتاب قلب لبنان ٥٥٠ صفحة مع فهرس الاعلام، وفيه تسعة فصول تروي تسع رحلات بتفرعاتها. أما تصميم الكتاب، في الاصل، فيتناول خمسة عشر فصلاً أو خمس عشرة رحلة. على أن الاجل وافى الريحاني قبل ان ينجز فصوله الستة الأخيرة بتصاميمها الموضوعة.

الرحلة الاولى — الارز — (نظرة الى الماضي — التأهب للسفر — نهر الكلب — نبع الحديد — الاودية المقدسة — الأرز — حقائق ورقائق — عين روما — حلّت البركة) .

الرحلة الثانية — حيث شاء الطريق — (الاخ حنا — دير مار جرجس — الضيعة وضيعاتها — في ظلال الجوز — سطوح الجبال — حكيم بتغرين — وادي الجماجم — صنين — مع المكارين — العروس المزينة — القصر المنيف) .

الرحلة الثالثة — بلاد جبيل — (الشريك — قعقور الخوري —) .

الرحلة الرابعة — أرز جاج — (في الطريق — الضيافة اللبنانية — أرز جاج — أرز الرب — الارز — الصخور —) .

الرحلة الخامسة — الى اللالئ — (على نهر ابراهيم — عين البطرك — اللألئ — المير بشير — ما تمتاز به المأدبة اللبنانية — الآفاق —) .

الرحلة السادسة — افقا — (خرائب الآلهة — العاقورة — الغابة المغضوب عليها — القديسة تقلا — الخربة الكبرى — الاسطورة الخالدة — العيد والنشيد — نهر أدونيس — يحشوش) .

الرحلة السابعة — عمشيت — (من يحشوش الى تريفيه — بين الشك واليقين — البعثة التاريخية — في لبنان — بعد خمسين سنة).

الرحلة الثامنة — غرزوز — (الصبي المطوق — الطوق الاقدس — صخرة الرويس — موسوعة القرية — من سطح مار شربل — الجبابرة — سفر القديسين — جران وصاحبها — أخواتنا الفتيات) .

الرحلة التاسعة — في غياب الزمن — (محطات السنين — جبيل الشموين — جبيل الأثريين — رسول الاله عمون — فينيقية والفراعنة — تحت انيار الشرق والغرب — الادب الفينيقي —

الشرق والغرب – الادب الفينيقي – الصناعات والاختراعات – نشوء الالفباء – الفينيقيون والاغريق – التجارة – أسياد البحار) .

من الرحلة الاولى

أقف بالقارىء عند سنة ١٩٠٧ على كتف وادي الفريكة لأقدم اليه « شاباً لبنانياً كان قد هاجر الى اميركا وعاد منها يحمل الكتب الادبية ، لا السندات المالية ، ويتخذ الوادي منسكاً له فيبني معبداً فيه ، او يحسب معبداً كل مشهد من مشاهده ، بل كل مكان يقف فيه القلب مبتهجاً ، والفكر مستوحياً ، والروح خاشعة مطمئنة .

كان ذلك الشاب مشغوفاً بالكتب والكتابة ، فانصرف بكل قواه وكل جنونه اليها . جفا الانس ، الا الفلاحين منهم ، وما واصل الجن ، الا من كان منهم نسيباً لشاعر او صنواً لمجّان ضحّاك ، فظل على شيء من الانسية المؤنسة ، وما ادعى النبوة مرة ولا القداسة .

ولكنه رأى ان يعبد الله في المعبد الاكبر ، في الفلاة ، في الحقول ، في الوادي ، في ظلال الصنوبر والزيتون ، فقال الناس إنه كافر ينكر وجود الله . وقد سمعه بعضهم يقول : الطبيعة أمي ، ويرددها ، فقالوا انه يجدّف على الله تعالى .

ورأوه يقف مأخوذاً عند وكر تزقزق فيه صغار الطيور ، أو عند زهرة تنور بين الصخور ، او عند قندولة يفوح طيبها من بين الادغال ، او على رابية خضراء فوق جبل أجرد أصم . رأوه يهيم في الحقول ، وفي الغابات ، فقالوا إنه يتأثر الجن ، ويجتمع بهم في غار الوادي ، وانه لذو جنّة . فكانوا لذلك يجتمعون عليه ، فيضحكهم ويضحكونه ، فيحار فيهم السنونو ، ويهز برأسه قائلاً : من العاقل فيهم يا ترى ؟ ومن المجنون .

ذلك الشاب ، بعد ان قضى نصف حياته في المدينة العظمى مدينة نيويورك ، عاد الى مسقط رأسه في لبنان ينشد حقائق الوجود الكبرى ، فوجدها في العزلة ، او وجد في العزلة سبيلاً أوصل اليها . ووجدها في البساطة ، او وجد في البساطة ألطف ناحية من نواحيها . ووجدها في الجمال ، او وجد في الجمال الرمز الأنور من رموزها . ووجدها في الوداعة ، بل وجد في الوداعة أسحر صورها ، وهي جالسة بين اختها الشمس وأخيها القمر .

وفي تلك السنة التي وقفنا عندها ، في ١٩٠٧ أحس ذلك الشاب ، وهو جالس على صخرة في الوادي ، في كل صنوبرة ساحقة ، أن يداً تمسح جبينه ، وتدلك ما بين عينيه : فأدرك أنه في جبل القداسة . وان كان لا يزال ابناؤه يبنون الكنائس ، وانه كيفما اتجه يرى للخالق أثراً في جمال الأودية ، وجلال الرواسي ، وأدرك كذلك ان العبادة لا تلبس الثوب القاتم ، وان القداسة لا تعرو الوجه القمطرير ، وان الاشراق والبشاشة والضحك كلها من نعمائه تعالى .

لقد تجلت هذه الحقائق لذلك الشاب ، وهو جالس ذات يوم على صخرة فوق هاوية سحيقة ، تنتهي الى ضفة نهر ، مزدانة بالحور والدفلى ، تظلل مياهاً تجري هادئة لتسقي في الساحل البساتين . تبارك العقم تحت رجليك ، والجمال بين يديك ، والنمو والأثمار أمام ناظريك . إي ورب الأرز . ان الشمس ترقص على الصخور ، وتحت الحور والدفلى تستريح ، وفي البساتين تتعاون والتربة على البر والتقوى .

الجبل المقدس — جبل لبنان .

ثم تجلى لذلك الشاب حقيقة اخرى جليلة ، وهي ان أقدس ما في الجبل المقدس هو الأرز . فكيف يبني العابد معبده في الوادي ويظل ابن الطبيعة مقيماً فيه ثلاث سنوات ولا يزور أقدس مكان في لبنان ، لا يحج الى الأرز ؟ هذا هو الكفر بعينه. وقد آلى ذلك الشاب على نفسه ألّا يكون من الكافرين » .

... « إذن على ظهر البغلة الى الأرز . وأين البغلة ؟ سمعني قسيس القرية أسأل هذا السؤال ، فقال : البغلة عند محبوب ، ليس في المكارين أصدق من محبوب ، وأعلم منه بطرق الجبال . وليس في البغلات أعقل من بغلته ... »

« سمعت من القسيس ، فطلبت محبوباً ، وعقدنا المعاهدة على مجيدي واحد من مجيديات الدولة العلية كل يوم ، أجرته واجرة بغلته ، وضمانة بثمن البغلة اذا أدركنا قطاع الطريق وأحبوها وآثروها على مالنا وعلينا ، ثم « شوفة خاطر » عندما نعود

من الارز سالمين . عقدنا المعاهدة وشهد علينا مختار القرية وقسيسها .

وفي ذلك اليوم شمر كل من في البيت عن ساعده وساعدها ، وشرعوا جميعاً يعملون في تحضير الزاد ... « أمين ، يقبرني ، مسافر الى الأرز » .

« وجاء محبوب فجر اليوم التالي يقود بغلته المحبوبة ، وقد أثقل عنقها بالقلائد والأطواق . وفيها الشراريب والاجراس والودع والخرز وفيها خرزة العين (حجاب) .
وهذا ، يا محبوب ، المسدس . احمله انت .

ذلك المسدس بمنطقته من الجلد هو مسدس عسكري طويل خطير ، اشتريته في نيويورك ، قبل عودتي منها ، لما كان يشاع في الجالية هناك عن « الطيارين » قطاع الطرق في جبل لبنان ، ولكني لم أحمله مرة ، ولا اضطررت الى استعماله .

ولكني كنت أستأنس بوجوده في درج مكتبي ، وثابرت في اذاعة خبره ، فأصبح مشهوراً ، وصار الناس يقولون : مسدس الريحاني كما يقولون اسطول بريطانيا العظمى ويسكتون . »

ولما بلغ الريحاني نهر الكلب سأله محبوب عن سبب تسمية هذا النهر بهذا الاسم فقال: «ان لسؤال محبوب جواباً في أساطير الأقدمين ، فقد كان يحرس الممرّ كلب كبير خطير ، فصيح اللسان ، محبّ للألغاز ، فيطرحها على المارين ليحلّوها ، فمن

حلّ لغزاً منها أعطاه الأمان وأذن له بالمرور ، ومن عجز ابتلعه ابتلاعاً ، دون ان يكسر عظماً من عظامه .

وقالت الاساطير ان الناس نصبوا عند مصب النهر صنماً في صورة كلب كانوا يعبدونه لانه كان يرى العدو من بعيد فينبح لينبه عبّاده ويحذرهم منه .

وقالت كذلك ان بعض الصخور تشبه ذلك الصنم .

... وقفنا عند الدكاكين ليشتري محبوب علبة سواكير ويسأل عن صحة صاحب الدكان وزوجته .

وعندما اعان الامين للركوب وقدم له الرسن قائلا : « لا تشد ولا ترخِ ، هكذا ، ولا تخف » . قال الريحاني : كظمتها هذه ان « لا تخف » . ولكنني عزمت ان اقدم لمحبوب البرهان والدليل ، اني لا اعرف من الخوف اكثر مما اعرف من الحقيقة في اسم نهر الكلب » . وفي الطريق الى عجلتون قال محبوب : « الوقعة بين هذه الصخور ملعونة ، على مهل يا معلمي على مهل » . فكلمه الامين « بلهجة فيها شيء من نبرة الظفر والتذكير : لا تخف يا محبوب ، لا تخف . فضحك وقال : والله يا معلمي صرت من الفوارس » .

وفي وصف الطريق الى فيترون يقول المؤرخ : « ان هناك بقعة بركانية منقطعة النظير في لبنان ، فهي لا تمتاز بتعدد وتركيب صخورها فقط بل تمتاز كذلك بالاشكال التي اتخذتها

تلك الصخور ، فكأن يد المكوّن الاعظم ، يد فنان جلس هاهنا ينحت التماثيل والاشكال البشرية والحيوانية والهندسية ، جلس هاهنا يعمل على هواه في هذه الصخور ، فكوّن منها كل ما يستطيع ان يتخيله أخصب المصورين الشعراء خيالاً ، وفيها الجميل والرائع والفظيع والقبيح والغامض والمضحك من الصور والاشكال . فلا مبالغة في القول انه متحف الصخور » .

يقول الريحاني في كلامه على مغارة أفقا ونبع الحديد : « ما الذي جاء بنا الى نبع الحديد ؟ كان يجب على محبوب ان يتخذ الطريق الاسفل ، البعيد عن أوكار النسور — واللصوص — الى لاسا ، فضلّ بين الصخور ، دون ان يعلمني بذلك . وأمعن في الطريق الذي كان يخشاه ، الطريق العالي الى مغارة أفقا .

وكنت قد طلبت منه ان نمر بأفقا فجمجم الكلام ثم قال : وأي شيء في مغارة أفقا ؟ وما هي مغارة أفقا ؟ ثقب في جبل، غداً أشتري لك في بيروت صورتها فترى أنها لا تستحق الزيارة، صورتها أحسن منها .

وها نحن مع ذلك في نبع الحديد الذي يبعد مسافة ساعة فقط من المغارة ، والطريق منه اليها يتحدر نزولاً ، فقد بلغنا في هذا المكان أعلى ما اجتزناه من الجبال ، نبع الحديد ١٥٩٠ متراً هو بركة في شكل تنور ، بل كبركة بين الصخور ، تنبع ماءً زلالاً فيطفو على وجهه الحبب ، كأنه في غليان واذا امتدت اليه يدك فانك لا تجلد عليها اكثر من ربع دقيقة من شدة البرودة .

جرّبنا فعددت خمس عشرة مرة وسحبت يدي متألماً ، وعدّ محبوب عشرين ، أما المعاز الذي كان هناك عند وصولنا ، فقد عدّ ثلاثين ، وسحب يده من الماء هادىء البال فخوراً . المعّاز على نبع الحديد شيء مألوف ، ولا أزال أذكر ذلك المعاز الشاب بما رسخ في ذهني من جماله الجبلي البارز ، بعينين سوداوين كبيرتين برّاقتين وفم قرمزي مستفيض ، كأنه الاله تموز .

وكان قد فك جرابه وأخرج منه الخبز اليابس ، وجعل يبلّ الرغيف منه بالماء ، ويلفّه ويكدمه كدمتين ، ومن حين الى آخر يأخذ حجراً ويرمي به إحدى العنزات الشاردة ليردها الى القطيع .

تظللنا صخرة بين تلك الصخور فأنزل محبوب الخرج وفتحه ففاحت منه روائح الدجاج المقلي والكبة المشوية ، وكان المعّاز لا يزال يبلّ الرغفان ويكدم ، فناديته فقال : « كثر الله خيركم » ، فألححت ، فجاء متردداً خجولاً ، ثم جلس على حجر معتذراً ، فشاركنا ، ثم قال : « أرجوكم ان تنتظروا دقيقة واحدة » وراح يثب بين الصخور كإحدى عنزاته ، وعاد بعد قليل يحمل سطلاً من الحليب ، وهو لا يزال على حرارة الضرع ، فوضعناه في ماء النبع ليبرد فغدا بعد بضع دقائق كالحليب المثلج .

رأيت المكاري أثناء ذلك يكلم المعاز وسمعت هذا يقول : « هذه طريق أفقا .. وهناك – رمى بحجر من تحت الابط فتقوّس عالياً – هناك ، طريق لاسا . »

وسار محبوب في الطريق الذي يخشاه الى المكان الذي شئته أنا ...

الاودية المقدسة

من حسنات هذا الطريق الى الأرز انه طريق جبلي يمر بك على ثلاثة أنهر تاريخية ، هي نهر الكلب ونهر ابراهيم ونهر قاديشا ، وثلاث مغاور أثرية عجيبة هي مغارة جعيتا ومغارة أفقا ، ومغارة بشراي (قاديشا) .

ومن صفات هذه الانهر والمغاور صفة قدسية زرع بذورها الكهان ، وأنماها ذوو الورع والايمان ، وضمّخها ببخوره الزمان ، وقد غرست الأمم الشرقية والعربية على ضفاف تلك الأنهر أغراس الأساطير والخرافات ، ووسمتها بالميسم الديني الوطني ...

... ودّعنا مضيفنا في اللألؤ « ثم صعدنا الى الجبل المكسو بالأرز المعروف بأرز الحدث أو أرز البطرك . . . ومن هذه الغابة ... المزروعة بالأرز والشربين... والتي تدنو في علوها من مستوى الأرز الأشهر نزلنا الى الحدث ... »

الارز

« وصلنا اليك يا أرز لبنان سالمين .

ولكن الأمل تدهور من علياه ، والخيال طاح من سماه ،

والقلب نُكب في إيمانه وهواه، عندما أطللت على مجدك المكوّم تحت جفن الجبل .

كنت أتخيلك منتشراً فوق الرواسي ، مخيّماً على البطاح والربى ، مرتفعاً كقوس قزح فوق الأودية والسهول ، حاملاً في عبيرك شذا الأزاهير وطيب الرياحين ، جامعاً في ظلالك كل أنواع الاخضرار، باسطاً من جلالك على وجه المياه، وبين صخور السواقي ، وعند ملتقى الوهاد والشعاب ، كنت أتخيل الأرز في هذا المجد الرفيع العميم ، فرأيته منزوياً في حنية من طرف فم الميزاب .

كنت أتخيل الجبل في ظل الأرز ، فألفيت الأرز في ظل الجبل .

كنت أتخيل الزمان مجسماً في غابات الأرز ، فرأيت الأرز مصغراً في كف الزمان .

كنت أتخيل اخضراراً يرتدّ البصر عن آفاقه حاسراً ، وتتكسّر أجنحة العقبان في التحليق الى مفترش جذوره ، فرأيت بقعة سوداء ، في حنية دكناء ، ونسراً يبسط فوقها جناح الكبرياء .

... كنت أتخيل كل هذا ، قبل ان وقفت عند الباب ، وبي دهش وحيرة محرقة ...

... قيل ان كل كبير في الطبيعة وفي الفنون هو صغير لمن في

قربه ، فيجب ان نبعد عنه قليلاً ليتجلّى لنا ما فيه من سمو وجمال ولندرك ما هو عليه من حقيقة العز والسلطان ، هذا القول يصح في بعض الأشياء ، ولا يصح في غيرها . يصح مثلاً في الجبال العالية ، فانك لا تدرك مدى شموخها وأنت واقف في سفحها... أما في الصروح والمعابد الكبرى وفي الآثار العظيمة... فالعكس هو الصحيح ، فانك لا تشعر مثلاً بهول الارتفاع في في العمد الستة في آثار بعلبك إلا اذا وقفت في ظلها وتحت افريزها .

... دخلت الغابة التاريخية المقدسة وأنا أتلمس في سكينتها الرهيبة موطئاً للقلب الهائم ، ومحراباً للروح الخاشعة .

دخلت الهيكل مؤمناً مستأمناً ، ومشيت في الأروقة المفروشة بالطنافس السوداء المصنوعة من ورق الأرز وترابه ، ووقفت تحت القبة الخضراء ، الى جنب عضادة من العضادات الكبرى ، وأنا أفكر بما دهمني ساعة الاطلال ، وما غمرني ساعة التجلّي .

سكينة يحتضنها الجبل ، ويعطر جوانبها الأرز ، سكينة تتهادى تحت الأغصان، فتجر الأذيال على ما تناثر منها، فتحدث صوتاً ولا صوت النسيم في السحر، صوتاً هو الهمس السهل الممتنع الذي تجثو له أساليب البلاغة والبيان .

وقفت في ذلك الهيكل ، تحت القبة الخضراء ، بين العمد الساحقة ، اعطر في تراب السكينة وجه الشك ، وأمسح

بعطرها عين الشوق ، وأرهف لهمسها أذن الحب والاستغفار ، فسمعت للبلاغة أصواتاً قديمة ، وللبيان لهجات غريبة ، وللتمجيد همسات حبيبة ، كانت تتساقط كورق الأرز في أحضان السكينة ، او كمطر نيسان على ورق التوت .

أصواتاً ناعمة عريضة ، وأصواتاً رفيعة حادة ، وأصواتاً كصدى اجراس المساء في الجبال ، وأصواتاً كهديل الحمام في سكينة الفجر ، وأصواتاً كهمس الاشجار في ضفاف الانهار ، وأصواتاً كطنين الهوام في الهجيرة ، وأصواتاً كدوي الامواج بين الصخور .

سمعت الفينيقي يصف محاسن خشب الأرز في مصر ليسمع فرعون . خشب صلب صقيل ، جميل اللون والعروق ، جميل الرائحة ، زينة الهياكل والقصور ، الزمان لا يقوى عليه ، ولا السوس يدنو منه ، خشب عجيب يابس كالجلمود ، ملس كالزجاج ، جميل كالورد .

وسمعت كلمات الفينيقي تردد في بلاط نينوى وآشور ، وفي بلاط ملوك فارس .

وسمعت أصوات الفؤوس والمناجل في الغابات ، وأصوات المطارق والمناشير في مصانع طرابلس وجبيل .

وسمعت آشور بنبال يفاخر بجزيته من شجر الأرز ، وسنحاريب يتبجح انه زار الأرز في شماريخ الجبال . .

وسمعت بعد أصوات الفاتحين والناهبين ، أصوات الجد والشعر والقداسة .

صاحب المزامير يهتف باسم اشجار الرب أرز لبنان .

وصاحب نشيد الأناشيد يتغنى بتخته المصنوع من شجر الأرز وبرائحة عروسه الشبيهة برائحة لبنان .

وسمعت اشعيا يمجد أرز لبنان العالي المرتفع ، وعاموس يشبه الاموري الجبار بالارز .

وسمعت صوت حزقيال كدوي الامواج بين الصخور .

أرزة لبنان بهيجة الأفنان ، وارفة الظل ، شامخة القوام .

عظّمتها المياه ، ورفعها القمر الى أعالي الجبال .

عشش في أغصانها كل طيور السماء ، وولد تحت فروعها كل حيوان البر ، وسكن في ظلالها كل الأمم العظيمة .

بهيجة في سموقها، بهيجة في امتداد أفنانها، بهيجة في تكوينها.

فحسدتها كل اشجار عدن التي هي في جنة الله .

وسمعت مؤرخ الاغريق يؤيد نبي اسرائيل ، وسمعت شعراء الفرنجة يرددون أصداء أصوات الأنبياء والمؤرخين .

... وسمعت في تلك الغابات أصوات الفؤوس والمناجل ، وأصوات القطّاعين والحطّابين .

ورأيت خشب تلك الغابات في مصر ، يصفّح بألواحه جدران قصور الفراعنة وهيا كلهم ، وتذرّ نشارته على جثث الملوك المحنطة ، وتضمخ بطيبه توابيت الموميات .

ورأيت خشب تلك الغابات في هيا كل آشور وفي قصور ملوك فارس ، وفي بلاط داود وفي هيكل سليمان ، وفي هيا كل آلهة الرومان بإفسس وأنطاكية .

ورأيت خشب تلك الغابات في البحار فوق أمواجها الصاخبة .

السفن التجارية ، سفن الفينيقيين ، التي اقتحمت أهوال اليم عند أقدام هِرَقل ، والتي شاهدت الامواج تفتت الصخور الكلسية على شواطىء الجزر البريطانية .

سفن الفينيقيين التي حملت الأصباغ والزجاج والمنسوجات من هذه الشواطىء الشرقية القديمة الى شواطىء العرب والشمال .

سفن الفينيقيين التي عبرت بحر الظلمات الى العالم الحديث وطوت الشراع على شواطىء افريقية الغربية عند خط الاستواء .

ورأيت خشب الارز في السفن الحربية التي غزا بها الفرس بلاد الاغريق .

ان الاسكندر في سوق الخشب يبتغي من الأرز أجوده لبناء الجسور أمام صور فيصل الجزيرة بالمدينة « خشباً من أرزكم لاؤدّب صور » .

انطيغون الملك يطلب بناء خمسمائة سفينة حربية ليغزو بها

المدينة التي تمردت على الاسكندر ، ليكتسح بها صور عروس فينيقية .

وأصحاب الغابات فينيقيون ، وتجار الخشب فينيقيون ، وصانعوا السفن فينيقيون .

... هذا خشب الأرز في أسطول انطيغون الملك .

وهذا بعد الف سنة ، خشب الأرز في أساطيل الخليفة الأموي ، معاوية بن أبي سفيان .

* * *

... يقول أحد العلماء ان اكبر شجرة من تلك الشجرات عمرها ثلاثة آلاف سنة ، أي انها كانت غرسة صغيرة يوم كان سليمان الحكيم جالساً على عرشه في أورشليم ...

* * *

من الرحلة الثانية

... كأني بأهل بيت شباب قد استناروا بنور أحد أدبائهم او بعلم كهنتهم فنبذوا لفظات البلدة والقرية والدسكرة وأسموا قريتهم ضيعة ، بل هي الضيعة المشرفة بأل التعريف .

* * *

... هل جاءَك نبأ الدودة التي تُغرس من اجلها بساتين التوت ، وتُشيّد الخِصاص ، تلك البذرة الغالية الكامن فيها

خيط الحرير ، بذرة قزّ ساكنة ، فجرثومة متحركة ، فدودة نهمة ، تأكل من ورق التوت ليل نهار سبعة ايام متواصلة ، ثم تصوم يوماً كاملاً ، ثم تعيد الكرة على الأطباق الخضراء ، وبعد صومات وأكلات معدودة ، تصعد الى الشيح لتحوك الشرنقة حبسا لها من الحرير ، فيحين يوم القطاف ، وما يصحبه من أمل بموسم مبارك ، وهذه هى الشرانق تنقل الى المعامل فتخنق فيها الديدان ولية نعمة الانسان ، ثم تنقل الشرانق المخنقة ، الى أجران المعمل وفيها المياه الحامية ، ووراءها الحلّالات والحلّالون يتناولون بأناملهم خيوطها الذهبية ، فتُحَلّ ، وتُلَفّ على الدواليب ، ثم يُرزم الحرير المحلول خصلاً ، فبالات تُشحن الى اوروبا .

* * *

دير مار جرجس (بين الفريكة والشاوية) .

ما أعلمه هو ان هذا الدير كان للرهبان في القرن الثامن عشر ، ثم صار للراهبات ، ثم تحول الى مدرسة اكليريكية ، ثم الى بيت خصوصي ومعصرة للدبس والخمر ، ثم الى مدرسة علمانية أنشأها المرحوم نعوم المكرزل قبل ان هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، وكان هذا الكاتب من تلاميذها في العاشرة من سنه ، اما اليوم فالدير أثر من الآثار المسربلة بجلال العتق والقدم .

* * *

صنين

صنين ! هل شاهدته مرة يتجلبب بالألوان التي تنسجها له الشمس الغاربة على منوال الغيوم البحرية؟ هاكه في جلباب فضي ، هاكه في ثوب أرجواني ، هاكه في قميص من نسيم الورد والزعفران ، هاكه في جبة الغسق البحران ، وهل شاهدته ساعة الفجر ، ساعة تطل الشمس من وراء عرشه فترسل أشعتها الناعمة على الحقول والآكام ، وفوق الاودية الماثلة بين يديه ، فتستخرج من مشبّحاتها حقائق الفن والحياة .

وادي الجماجم

ذكر القاموس انه « سمّي بهذا الاسم لحرب وقعت فيه ، فتراكمت جماجم القتلى حتى سدت طريق النهر الجاري هناك .

ان وادي الجماجم لأشد أودية لبنان وحشة وهولاً ... بيد ان المشاهد الطبيعية ، على هولها ووحشتها ، حافلة بأنواع المحاسن المغرية الفتّانة ، شكلاً ولوناً ومعنى .

وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب ، بقي طوال الدهر نكرة الى ان شع فيه نور الفكر والادب بعد ثلاثين سنة من هذه الرحلة. لست أدري أين كان ميخائيل نعيمة يومئذ يثقف ما وُهب من ذكاء ويرد موارد العلم ، وما اكتسب من أدب . ولكني وأنا أنظر الى المستقبل بعين ثاقبة صائبة أرى

ميخائيل ، وقـد اتخذ الشخروب ، في العقد الثالث من هـذا القرن العشرين ، منسكاً له ...

* * *

سفح جبل نهر الصفا

زلزل سفح جبل نهر الصفا الذي هو تحت قرية كفر نبرخ وانسلخ عن أصله ومال الى الجهة الثـانية التي تحت قرية مجـد المعوش حتى التصق بهـا وردم مجرى النهر الذي كان في الوادي بين الجانبين واندثر تحت الردم عدة عقارات . وكان في الوادي قرية صغيرة فهلك جميع أهلها تحت الردم . وقيل انه كان رجل حاملاً كوران نحل وسائراً في ذلك السفح فلما زلزل ومال سار مع تلك الارض المائلة . وقد دخله الاندهاش والارتعـاش من سير الأرض به ولم يشعر إلا وهو في الجـانب الثـاني الذي تحت قرية مجد المعوش المذكورة وبقي سالماً ، إلا انه زال عقله ممـا صادفه من انتقال الارض من جهة الى جهة، وهذه الخسفة كانت في الثامن عشر من كانون الأول سنة ١٧٦٧ م ١١٨١ ﻫ .

* * *

زحلة

اي زحلة ، ربة الوادي ، ومحجة القلوب ، زيديني حبـاً ، زيديني نوراً ، زيديني صفـاءً في التحنان ، وصدقاً واخلاصاً في البيان، ان فيك الاحرار والاحبار، ان فيك الشعراء والابطال،

ان فيك جمالاً يفيض، وقد فاضت على ضفتي نهره أفانين القصوف وأسقام الزمان .

اي زحله ، ربة الكرمة والساقي ، وحبيبة العود والناي ، خطبتْ ودَّك بنت الحان ، وتغنّت بواديك الركبان ، ومجّد بردونك أمراء الشعر والبيان .

... لقد ثُلَّ عرش الوادي فورث مجده الشعراء ، ولقد فاز بالقسط الاكبر ابن زحلة الخالد فوزي المعلوف ، فحمله الى مـا وراء البحار . راح مثقلاً بوقر العبقرية ، مكبلاً بقيودها ، ففك القيود هناك — في البرازيل — وأعاد الينا وحي الوادي في كتاب من الشعر الخالد هو « بساط الريح » .

كان فوزي رحمه الله ، وأخوه شفيق طال بقاؤه ، وُليدين يلعبان بالكلل ، ويطيران طائرة الورق يوم زرت زحلة الزيارة الأولى ، ونزلت ضيفـاً على أبيهما صديقي الأبر الاستـاذ عيسى اسكندر المعلوف صاحب المؤلفات التاريخية القيمة .

... في ذلك الزمان ما كان في ساحة شتورا غير خان واحد وفندق ومقهى ...

... وعلى ذكر المآدب نحيي أميرها وخطيبها ونحن مارّون بأرضه ومقرّه. فقد كان خدن الأمراء والحكام وكل صاحب لقب ومقام ، وخطيب المحافل الرسمية ، في سورية ولبنان . انه المبخّر الاكبر ، والمهلّل الاشهر ، حيثما حلّ أمير او سعيد او

صاحب دولة خطير ، سليم ايوب ، تغمده الله برحمته .

* * *

... استأنفت السير الى المريجـات ، مسقط رأس الفوارس الثلاثة اميل وفيليب وفليكس وُلـْد المحامي حبيب فارس ...

فليكس فارس :

... فليكس فارس الخطيب المفوّه، الشاعر الملوّع، الاديب المروّع . فليكس الضحية الكبرى ، ضحية الادب ، وضحية السياسة .

* * *

وعند بلوغ الريحـاني صوفر ، يروي قصة طرده من القصر المنيف، أي من فندقهـا الكبير من جرّاء منظره الرث وتدارك جرجي ديمتري سرسق الأمر ، وفي القصة وصف دقيق للعبة الروليت وللاعبين واللاعبات « بالبوكر » و «الديكا » .

ومما يقول في ذلك : « طُردت من النزل ، نعم ، وقد وصل الخبر الى جريدة ببيروت في اليوم التالي فنشرته بشيء من المبالغة، فتناقلته بعدئذ الجرائد في الوطن والمهجر ، وجسّمته ليليـق بالمطالعة فقالت اني ضربت الحاجب بعصاي فشججت رأسه .

* * *

من الرحلة الثالثة

« سألت عن عين كفاع في رحلتيّ الاولى والثانية ، وكان في

النية اكتشافها ، ومفاجأة الصديق فيها ،ولكنها في ثنيّة مخبيّة، وعن الطريق قصيَّة. فغبطت أبا محمد وحسبته في الحكمة كبيري واستاذي . وقد اختار لنسكه ذلك المكان ، بين الأضلع الجبلية من لبنـان . فأين الفريكة في العزلة من عين كفـاع وان أبا محمد هناك لفي حصن حصين .

* * *

من الرحلة الرابعة

أرز جاج — أرز الرب —

رفعت حجراً من حجـارة الطريق الى فمي ، فقبلته ثلاثاً ورعاً حامداً آملاً ان دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الأرز لامتهاني حرمة عزلته،هذه العزلة الفريدة، في أعالي الجبال ، فوق وكر النسور وراء حجب الآ فاق .

استغفرت الأرز لأني جئت أشق ستار كعبته ، أستكشف مكنون سره .

ايه ربة الاشجار وسيدة الجبل الجبار .

انت الرافعة اعلامك الخضراء بين هذه الصخور الدكناء .

بنت الجديدين ، وأخت القمرين ، حدثيني .

حدثيني وعلميني ، وارفعيني الى علياء إيمانك .

فقد جئتك مستعلماً ، مسترفعاً ، مستمداً من ينبوعك العالي القوة والحكمة .

* * *

... جلنا في الغابة ، القائمة على منحدر مستطيل الشكل ، وفيها اربعون أرزة ونيّف ، خمس منها ضخمة قديمة ، دائرة احداها نحو ستة أمتار ، وعلوّها نحو ثلاثين متراً .

* * *

... هي الصخور ، الناطحات السُحُب ، القاطعات الطرق على العقبان .

هي الصخور الحاضنات البطاح ، الحارسات مضايق الرياح .

هي الصخور المزيّنة الصرود ، الرافعة للعزلة البنود .

هي الصخور الجاثمة الواجمة ، الساخرة بالبروق والرعود .

هي الصخور الحافظة للارز الابواب ، الضاربة حول الأرز الأطناب ، الحاملة عرش الأرز على المناكب والرقاب .

* * *

من الرحلة الخامسة

... وفي البلاط — القرية الوحيدة بين الساحل وطرزيّا — كنيسة قديمة لفت اليها نظرنا شارل قرم . وعندما شارل قرم يلفت نظرك الى أثر قديم في لبنان فقل إنه فينيقي .

... وصلنا إهمج قاعدة صرود بلاد جبيل من ايام فخر الدين الى ايام الامير بشير الى عهد المتصرفين ، وهي تعلو ١٣٠٠ متر عن البحر . وهذه آبارها القديمة ونواويسها الفينيقية وهذه كنيستها، وهذه سندياناتها الهرمة تظلل ساحتها، وهناك كتابات لاتينية والطريق التي شقّها احد قادة الرومان لتربط بيبلوس (جبيل) بمدينة الشمس (بعلبك) .

* * *

... عرب اللألؤ من عرب النُعيم ، فخذان بنو غشوم والدُوَيْعز ، أما تاريخهم في هذه البقعة اللبنانية فهو مثل اسم المكان مجهول .

* * *

... رجال المال ورجال اللاهوت كلاهما يحتاج الى الآخر... على ان المطران بولس عقل كما يقال ، يختلف في هذا الامر عن سواه من اصحاب الارجوان . وهو يمتاز أيضاً بمرونة طبعه الاجتماعي فلا يحجم في مجلس أنيس ، ولا يتجهم الزجاجة والكأس .

* * *

نسبه

... قد يكتشف غداً الاثريون فيما ينقبون ، تحت الارض البكر على الشواطىء المجيدة ، وبين الصخور الخالدة ما يمكنهم

من الاثبات ان جبيل هي مهد الجنس الانساني ، ومنها تفرعت، وانتشرت شرقاً وغرباً ، مدنيات العـالم كلها . اني أدعو لهم بالتوفيق ، وأعلل النفس بالنبأ العظيم .

حسبي اليوم ما هو ينبوع الحبور لاخواني المعـاصرين فاني ، مثلهم ، من جبيل ، فقد انتزح أجدادي منذ مائتي سنة ، من قلب تلك البلاد ، من بجّه ، وتوطنوا بيت شبـاب ومزارعها ، القائم بعضها على كتف الوادي الذي اصبح يدعى بوادي الفريكة.

* * *

رافقه في الرحـلة الى اللألؤ شارل قرم وتوفيق الشرتوني وابراهيم حتي واسكندر حداد .

... وفي تلك الليلة باللآلئ ، على المائدة اليونسية وقف شاعر الشمس النـاظم قلادة درية لجيدها ، وقف شاعر الجبـل الملهم الملبس لبنـان جلباب المجد والجلال ، وقف شارل قرم يخطب بالعربية ، فأدهشنا جميعاً ، وأثار فينا الحب والاعجاب .

من الرحلة السادسة

هاك وادي أدونيس المنعم بوفر مـن الاخضرار والطيب . هاك قصيدة أدونيس السندسية العطرية الصوفية ، وقد تنوعت ابياتها شكلاً ولوناً وشذا . هوذا حرج من شجر البطم ، وفيه عناقيد القرمز تداعب ذخائر البخور ، وهوذا حرج من السنديان وفيه النشؤ والقوة والخلود كامنة كلها في بلوطة من بلوطه. وهاك

غابة من الشربين نسيب الارز ، وشريك مجده وجلاله . وهاك أدغالاً وآجاماً تفوح بطيب الغار والصعتر والشربين. وهناك في اطراف الوادي ومنعطفاته سرحات من الصنوبر تفرش فيئهـا النديّ للخنشار والسوس . وهاك أغرب ما في المعاني والاسرار رحبة حافلة بالحوذ، وفيه الحب الذي هو للسمك كالخمر للانسان، يأخذه الصياد فيلقيه في البحر فتسكر به الاسماك ، فيصطادها وهي سكارى .

* * *

ليست قرطبة لفظة عربية ولا آرامية انما هي اسبانية عربها عرب الاندلس كما عربوا غيرها من اسمـاء البلدان فقالوا اشبيلية وغرناطة كما قالو قرطبة .

* * *

... ان اكثر الاسر العاقورية أو أهمها متحدرة من العرب .

* * *

جبل العاقورة ... ذلك الجبل القـائم شمالاً وشرقاً ، الممتد جنوباً ، المؤلف من قلاع وحصون صخرية ، يتخللها منحدرات طرية التربـة ، لا تحول الحصون والقلاع دون انهيارها في فصل الربيع مرة كل بضع سنوات او بضع عشرة سنة . وفي فصـل الشتاء تنهار الثلوج انهيارها الخطر، وفي اوقات لا تعرف ساعتها تزور الزلازل العاقورة لتكمل عمل الاعاصير والثلوج .

* * *

لقد مر بالعاقورة الفاتحون من بابل وأشور ، وزار العاقورة غير واحد من عواهل الرومان ، ويمم العاقورة للدرس والتنقيب طائفة من العلماء ، فعثروا على كثير من الآثار والكتابات والنواويس في البلدة وضواحيها وأخصها الطريق الاقدم . ذلك الطريق من جبيل الى العاقورة ومنها الى بحيرة اليمونة فبعلبك ، هو طريق الفاتحين من بابل وأشور الى السواحل الفينيقية ، كما انه طريق القوافل التجارية من جبيل الى بلاد الكلدان ، ومنها الى خليج فارس فالهند .

ذلك الطريق هو طريق الرومان العسكري من جبيل الى بعلبك فتدمر ، كما انه الطريق الذي طالما ضج بالأحمال الثقيلة ، منها الحجارة الضخمة والعمد السامقة المصرية لبناء هيكل الشمس.

يقول رينان ان هذا الطريق هو أقدم طرق الدنيا ، لما في جانبيه من الكتابات الهيروغليفية والفينيقية والمسمارية واليونانية واللاتينية .

* * *

... أيتها الاهرام المدرَّجة ، المدفونة في أحشائك أجيال من الأحياء البحرية والبرية... انك حقاً لأعظم وأجمل وأقدس وأثبت من كل ما شيده الانسان من الأهرام والهياكل والأبراج.

* * *

... لله من يد الانسان ، الطامع بحزمة من الحطب . لله من هذا الفاتك بالغابات يسطو على الجذوع والفروع من أشجارها ،

فيفتح قلبها للرياح والأعاصير ، فتكسر وتصوح ما يبقى فيه من أسباب الحياة والحسن .

* * *

... لقد عثرنا في هذه الجادة – من المنيطرة الى مغارة أفقا – وهي تعلو ١٢٠٠ متر فوق البحر على محارة صغيرة متحجرة فيها حيوانات بحرية صامتة ناطقة .

* * *

... وأمامنا في هذه المهاوي الهائلة ، نبأ آخر من أنباء الزمان . هناك صفحة من كتاب الجيولوجيا ، تقرأ فيه سيرة تكوين الطبقات الكلسية ، بعضها فوق بعض .

... وقد سقط قسم من الجبل ، نحو عشرين متراً ، في زحلة سنة ١٩٠٥ ذهبت بقرية أفقا ، فأمست أثراً بعد عين .

* * *

الخربة الكبرى

... هيكل عشتروت، هيكل تموز – الحرم الاكبر الأقدس في البلاد الفينيقية – كان يغص بالزوّار في العيد السنوي ، في الربيع ، فيجيئه الأتقياء والأشقياء من كل فج وصوب ، من البلدان الساحل والداخل ، ومن بابل وأشور يجيئونه خاشعين ، حاجّين حاملين القرابين ، يجيئونه صاخبين متكسبين .

هيكل الزُهرة ، أغنى الهياكل الفينيقية جاءَه ذات يوم ذلك

الحاكم الروماني — الجشع الأثيم — مرقص كراسوس فنهبه نهباً ، بعد ان كان قد حارب (البرسيين بالأشكان) ونهب بلاد الرافدين، وقضى كراسوس هذا بضعة ايام يزن الأواني الفضية والذهبية والتحف الثمينة التي أخذها من هيكل أفقا .

لقد حججت معنا أيها القارىء ، فهل تريد أن تحج مع الفينيقيين ؟ انك تسمع العج والثج قبل ان تشرف على الهيكل ، وانك لتسمع أصوات الطبول والصنوج والمزامير ، وأصوات الكهان وهم يرتلون، وأصوات الحجاج نساء ورجالاً وهم يولولون وينتحبون، لقد ملأت الأصوات هذه الزاوية العالية من الجبال، وانتشرت في الوادي ...

وانك لتشعر بلهب النيران، وتشم روائح الدخان ... وهاك الكهّان وسدة الهيكل ؛ ثلاثمائة منهم ، يتقدمون المتعبدين بالمشاعل ... وهاك المومسات ، بنات الهيكل يرقصن رقصة الورع والغرام . وهاك الرجال يرقصون وينشدون ... يطوون الصدور والخصور ويزحفون على البطون .

وهاك المهوسين ، وقد حملوا السياخ وقطع الخزف ، يطعنون بها صدورهم ، ويخدشون الوجوه والزنوة ومنهم يقطعون قطعاً من اجسامهم ، ومنهم يخصون أنفسهم ، فيقدمون ما يقطعون قرباناً للمعبودة والمعبود .

وهاك المخنثين ، وقد طلوا وجوههم بالعمرة ... يلبسون لبس النساء تشبهاً بربّتهم عشتر العالية ، ثم يخلعون تلك الالبسة،

ويرقصون عراة مع المومسات تقديساً للوصال الشقي .

وما هذا الذي يرمون بـه من سطح المعبد ؟ أكياس فيها عجول ؟ لا تصدق ما يقولون ، ان في تلك الاكياس اطفالاً بشرية تقدم ذبيحة للآلهة ..

— وجاء اليونان ، وبعدهم الرومان ، فاقتبسوا الاساطير عمن تقدمهم ، وحسّنوا فيها وغيروا ، فصارت عشتر تعرف بأسترته ثم بالزُهرة ، وتطهرت العبادات والمناسك بعض التطهير من شعوذات الكهان ورجسن المتعبدين .

— ثم جاءَت المسيحية تحارب الاصنام والتوثّن جميعاً فدخلت لبنان في اوائل القرن الرابع قبل تنصّر قسطنطين . ثم أمر هذا الملك ، بعد تنصره ، بهدم الهياكل الوثنية كلها تقويضاً لأركان « ذلك الزمان الرجس » ، فهدم هيكل افقا في السنة ٣٢٥ وأجلى سكان البلدة الى بعلبك .

ولكن اللبنانيين ظلوا متمسكين بالوثنية وأصنامها ، وكانوا في أواخر القرن الرابع قد أعادوا بناء هيكل أفقا. قال المطران يوسف دريان نقلاً عن ثيودوريطوس ان يوحنا فم الذهب (٣٤٥ — ٤٠٧) « لما علم ان سكان فينيقية ما زالوا يمرحون جنوباً في سبيل الاوثان ، جمع بعض الرهبان ممن اكلتهم غيرة الله ، وعززهم بالاوامر الملكية العالية ، وارسلهم على هياكل الاصنام فخربوها، وقتلوا الوثنيين » . (كتاب البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة الموارنة) ... وبقيت بعض الهياكل

قائمة ، ومنها هيكل افقا ، الى عهد يوستينانوس ، حتى اواخر القرن السادس . وفي عهـد هذا الملك السعيد ، جاءت الزلازل تمد المسيحية ورهبانها (٥٢٧ — ٥٦٥) فضربت الهيكل الاكبر الضربة القاضية .

الاسطورة الخالدة

اعود بالقارىء الى الاسطورة الاولى ومنشأها في هذا الشرق الأدنى ، فان فيها بصيصاً من النور الأزلي الخـالد . وقد ابرق للمرة الاولى في قلب شاعر أو حكيم ، وقف متبصراً في بعض أعاجيب هذا الوجود .

هي الاسطورة التي صنع منها الكهان ديناً منظماً ، ذا عقائد وتقاليد ومناسك وعبادات مادية الشكل والمعنى .

هنالك في ذلك الزمان ، رأى الشاعر حبة الحنطة تدفن في الارض ثم تبعث حبة عشرين وثلاثين حبـة في سنبلة واحدة ، فتصوّر السرّ أو القوة السحرية في ظلمات الارض ، وقال لنفسه ثم لاخوانه : لا بد ان يكون لهذه القوة رب يرعاهـا ، ويجدد في كل عام مظهرها . اذن على الانسان ان يعبد ذلك الرب ، ليضمن دوام خيره ورضاه .

هذه هي الفكرة الاساسية في الاسطورة الاولى ، وقد سمي هذا الرب بلغة السومريين دّموزي اي الابن الذي يصعد مـن

العالم الادنى ، الابن البار البادل نفسه المبعوث .

ثم احب دموزي اخته إنيني ربة الارض والسماء ، فصارت تنزل الى العالم الادنى كل عام بعد وفاته لتعيده الى الارض .

... وبعد ذلك أدخل على الاسطورة رمز الحياة والموت ، في النبات الذابل صيفاً والمخضرّ ربيعاً ، فصـار دموزي يموت في كل صيف ويبعث حياً في كل ربيع .

لذلك كان يقام له مأتم في منتصف فصل الصيف في كل عام ، اي في الشهر الذي يعرف عندنا بتموز . وعندما اقتبس البابليون هذه الاسطورة عن السومريين دعوا شهر رحيل إنيني لتبحث عن حبيبها تموز أي شهر الاله دموزي ، وأسموا اخته عشتر ، اي الربة العذراء .

وكما تطور الاسم تطور الحب كذلك في الاسطورة ، فلم يبق عذرياً . فقد اقترن تموز بعشتر في بابـل . هي الصفة اللاهوتية التي اكتسبتها الاسطورة في بابـل . مـن دموزي الى تموز الى ادونيس ، تعددت الاسماء والرب واحد . اما الاسم الاخير فهو فينيقي مشتق من ادون اي سيد .

ولأدون هذا اسطورة فينيقية خاصة هي الحاشية او الملحق للاسطورة الاصليـة . أدون هو ابن مُرَّة ابنـة سنيراس ملك قبرص.ولد في البلاد العربية، حيث فرت امه هاربة من والدها، ثم عادت به شاباً الى جبيل .

وقد كان أدون مثال الجمال الكامل ، جمال الخلق والخلق ، فسمعت به عشتر ربة السماء ، فشغفت بحبه ، فنزلت من عليائها لتقيم واياه ، وكان ادونيس ولعاً بالصيد، فخرج ذات يوم لغرضه المحبوب ، بالرغم من تضرع حبيبته ، فتأثر خنزيراً برياً ، ورماه بسهم من كنانته ، فهجم الخنزير عليه وأراده قتيلاً ...

وهناك روايات شتى حول هذه الاسطورة يرويها الريحاني لينتهي الى قوله : ومما هو جدير بالذكر ان هذه العبادات وتلك التعاليم في الموت والبعث والفداء هي مصدر الدين المسيحي القائم على ثلاث عقائد — الام الالهية ، الاله الفادي ، والبعث والخلود —

هذا وفي اداب الاغريق والرومان قصص نثرية وشعرية تصف عيد أدونيس كما كان يقام في جبيل وغيرها من المدن عهد السلوقيين والبطالسة .

نهر ادونيس

اني افضل الاسم الاصلي لهذا النهر على اسمه الحاضر الذي لا يعرف له أصل ، وان قيل لي ان ابراهيم كان اميراً على المردة ، فسمي النهر بأسمه ...

أدونيس، أدونيس! لا يزال اسمك يردّد في الجبال والأودية، ولا يزال ذكرك ندّياً عاطراً، ولا تزال تنوّر من أجلك الشقائق القرمزية ، شقائق الذكرى الدامية .

وهوذا رسمك في ذلك الصراع المجيد ، صراع النور والظلمة ، صراع الربيع والشتاء ، صراع الحياة والموت . فأرداك خنزير البر وما أفناك ، أثخنك جراحاً ، فنطق كل جرح بالكلمة الخالدة : الحياة ألم فموت فبعث فخلود .

نكبنا عن الطريق في الغينة ، ومشينا في حقول زرعت توتاً وزيتوناً الى الصخرة المنقوش فيها الأثر الأدونيسي، وهو اطاران، الواحد يضم صورة الاله والخنزير البري يتصارعان ، والثاني صورة امرأة جالسة تبكي الاله المذبوح .

وهناك تحت تلك الصخرة ناووس لا غطاء له... والى جنب الناووس ، تحت الصخرة الأثرية تشويه آخر . . . هناك نقشت باللغة الفرنسية ما ترجمته: هنا وقف موريس بارس ليحب ويفهم أرواحنا .

... وفي الطريق الى يحشوش أخربة وآثار لهياكل وأنصاب فينيقية رومانية .

... وان لأدونيس ذكر هيكل في يحشوش، وآثاراً في أعالي الفتوح بجوار الحائط الروماني الذي كان الحد الفاصل بين الفتوح وجبيل .

وبعد ان يأتي الريحاني على تاريخ يحشوش القديم والحديث يقول : يحشوش داود بركات طوباك في قديم ثراك .

يقوم الريحاني بمقارنة بين بريتانيا ولبنـان من حيث أوجـه الشبه القائمة في البلدين معاً ، ثم يأتي على ذكر ارنست رينان وشقيقته المدفونة في عمشيت .

... كان الامبراطور نابوليون الثالث يقدر العـالم الفيلسوف قدره ، فانتدبه لمهمة علمية في الشرق . أرسله الى سوريا للتنقيب عن الآثار الفينيقية .

... كان رينان في تلك الايام يدرس حياة المسيح ليضع كتاباً في الموضوع . وقد رأت شقيقته ان من الواجب ان يزور البلاد المقدسة تكملة لدروسه ، فأشارت عليه ان يقبل المهمة التي انتدبه الامبراطور لها ، ففعل .

... شاغلان شغلا رينان في لبنـان ، التنقيب في جبيـل ، والتأليف في غزير وعمشيت .

... ولشد مـا كان ابتهاج الاخـوين في تلك الايام ، ايام الدرس والتأليف ، ولشدّ ما كان سرورهما بتلك المشـاهد من غزير شرقاً وغرباً ... فاذا كان وادي حمانا قرّة عين لامرتين ، فان جون غزير قرّة عين رينان . هذا الجمال الطبيعي لا يدركه جميعه غير الشعراء ، فلا عجب اذا هتف رينان في كتيبه الجميل « شقيقتي هنريت » قائلاً : ما ألذ تلك الساعات ! آه لو ان الأبدية مثلها .

... قالت هنريت لشقيقها : سأحب هذا الكتاب لا لأننـا تعاونـّا في تأليفـه بل لأنه يسرّني . قالت تعاونـّا ، دون ان تفطن الى شريكنا الثالث في التأليف ، الى شمس لبنان ، الى سماء لبنان ، الى لبنان نفسه ، فالكتاب « حياة يسوع » هو تأليف رينان وشقيقة رينان ولبنان .

... قبل عشرة ايام من وفـاة هنريت استأنف الاخوان العمل في « حياة يسوع » وهما لا يدريان بمـا يدبّ خفية اليهما ، فما عتّم ان انقطع العمل في التأليف والتحبير ، قطعته الحمّى التي غشيت الأخت قبل ان مسّت أخاها ... ومع ذلك نهضت ذات يوم ساعة الغروب ومشت الى غرفة أخيها ... ثم فاهت بهـذه الكلمات : « لقد أحببتك يا ارنست ، ولقد آلمك حبي في بعض الأحايين ، ذلك لأني أحببتك حبّاً جمّاً ، حبّاً يندر بين المحبين ، وقد لا يجوز . »

قالت هذا وعادت الى غرفتها ، فما رأته بعد ذلك ولا رآها.
... وعندما استفاق رينان من غيبوبته (التي أحدثتها الحمى فيه) سأل عن هنريت ، فعلم انها فارقت الحياة ، فارقتها صباح الثلاثاء في ٢٤ ايلول سنة ١٨٦٢ .

وبعد ان احتفلت عمشيت وقيادة البـارجة الفرنسية كانون بمأتم هنريت :

« وضعوها في تلك الحجرة ، في جوار الكنيسة ، تحت ظل السنديان » .

... ومما قال رينان في كتابه : شقيقتي هنريت : « أتردد في اخراجها من هذه الجبال الجميلة ، حيث قضت أوقاتاً عذبة ، بين هؤلاء الناس الطيّبين ، الذين كانت تحبهم ، لأضعها في مقابرنا الكئيبة التي كانت ترعبها . »

من الرحلة الثامنة

... هوذا منتزه الرُوَيس ، محطّ رحال الشعراء والعشاق ، وهوذا المشهد الذي ينبسط أمامنا ، من عمشيت الى جبيل الى نهر ابراهيم ، الى بيروت .

وهناك جنوباً بغرب ، على رابية اسمها المنزَلة ، دير قديم يعود الى القرن السابع ، ويُعرف اليوم بدير الاربعين شهيداً .
هناك كانت غرزوز القديمة ، يوم كان المكان غنياً بالمياه ، فنزح الأهالي عندما جفّت العيون ، على ما يظن ، وأسسوا غرزوز جديدة حيث هي البلدة اليوم .

... غرزوز قائمة على ذراع جبل بين وادي العقيبة ووادي حوران .

... وتعرف القرنة هذه بقرنة جبيل وفيها سبع قرى قديمة ، هي الريحانية وجدّايل وشيخان والمُنصف وبخعاز والبربارة وغرزوز ، وهي تعرف بقرنة الروم ، اصحاب الرأي المستقيم في الدنيا والدين منذ الأزل ، وهم لا يزالون محشورين في هذه القرنة

من قضاء كسروان الماروني ، دون ان يعوجّ فيهم ذلك الرأي .

... وفي هذه القرنة المباركة ، ذات القرى السبع ، نبع من الشعراء والادباء والصحفيين ما يكفي لتخليد الطائفة جميعها . اذكر من الشعراء سليم عازار الذي حمل عبء العبقرية الى الولايات المتحدة في فجر هذا الجيل ، ثم عاد به الى مصر ، فأراحه الله هناك ، وهو في ربيع الشباب ، ليغرد له في قفص الفردوس .

ومن شعرائها نعمه الحاج... ومنهم الشاعر القروي المشهور ، رشيد الخوري ... أما الادباء والصحفيون فان عددهم لا يحصى ... اذكر منهم يوسف الغرزوزي مؤلف كتاب « ما هو الكون » ... والاستاذ يوسف النابذ لقب اجداده هو من آل شهاب الذين نزحوا الى بلاد جبيل في القرن الماضي ، فراراً من نقمة والي الشام عليهم . وبكلمة تليق بموسوعة اقول انه في سنة ١٨٦٠ حدث خلاف بين الشهابيين ووالي الشام ، فثار الامير منصور واخوه الامير علي فقتلاه . فبلغ الخبر الصدر الاعظم محمد الكبرلي يومئذ ، فكبّر وتجبر . ثم ارسل ابنه احمد والياً على الشام وسيفاً على الشهابيين . فجاء الوالي الجديد ينفذ أوامر الباب العالي الدموية في بني شهاب ، ففر من نجوا الى بلاد جبيل ، منهم الامير منصور الذي استوطن غرزوز ، فاستمرت سلالته في ازدهارها حتى يومنا .

* * *

... في سالف الزمان كانت عين كفاع – وهي لفظة ارامية تعريبها العين الخفية – المليحة المظهر والمخبر معبر القوافل القادمة من جبيل وجونيـة وبيروت وصيدا ودمشق مثقلة بالبضائع الى بنادر الشمال : دوما بشراي اهدن ، وغيرها من دساكر لبنان.

... عدنا من كفيفان في الطريق الذي سلكناه... واذا نحن... بعد قليل ... في جْرَان ... حيث ولد خيرالله خيرالله ...

وفي دير عبرين تعرف الريحـاني الى الام جوزفين جويك الرئيسة العامة لجمعية العائلة المقدسة المارونية . ومما قال : قد اسس هذه الجمعية البطريرك الياس الحويك في سنة ١٨٩٥ اذ كان اسقفاً ، « لتقوم بتربية الفتيات على الروح الوطنية » ، وقـد بوشر بناء هذا الدير بعد ثلاث سنوات فتم في سنة ١٩١٣ .

***

من الرحلة التاسعة

بعد ان يوغل الريحاني في مجاهل التاريخ فيحدثنا عن محطات السنين وعن جبيل وفينيقية والفراعنة والاغريق احاديث علمية طويلة ينهي كتابه بقوله : وبعد هذه الرحلة في غياهب الزمان ، وفي كتب التـاريخ والآثار ، نعود الى مرابع الشمس ، والى الكتاب الاوحد الخالد ، الى فصل من اجمل فصوله ، الى لبنان.

المصادر

تاريخ التمدن الاسلامي – فجر الاسلام – ضحى الاسـلام – ظهر الاسـلام – مروج الذهب – تحفة النظار – ملوك العرب – قلب لبنان .

الطبعة الاولى تشرين الأول ١٩٦٦

الفهرس

* * *

كتب جديدة

لجورج غريب

استاذ الادب العربي في المعهد الانطوني

تصدرها تباعاً دار الثقافة في بيروت

•

ا — من سلسلة الموسوع في الادب العربي :

١ — ابن المقفع (صدر)

٢ — سليمان البستاني في مقدمة الالياذة (صدر)

٣ — ابو فراس الحمداني ـ دراسة عامة ـ (صدر)

٤ — الغزل ـ تاريخه واعلامه ـ (عمر بن ابي ربيعة ، جميل بن معمر) (صدر)

٥ — شعر اللهو والخمر ـ تاريخه واعلامه ـ (الاعشى ، الأخطل ، ابو نواس) (صدر)

٦ — الشعر الملحمي ـ تاريخه واعلامه ـ (عمرو بن كلثوم ، الحرث بن حلزة ، عنترة) (صدر)

٧ — ادب الرحلات ـ الاعلام : (المسعودي ، ابن بطوطة ، امين الريحاني) (صدر)

٨ — الجاحظ ـ دراسة عامة ـ

٩ — المتنبي ـ دراسة عامة ـ (قيد الطبع)

١٠ — احمد شوقي ـ دراسة عامة ـ

ب — كتب متفرقة :

١١ — الياس ابو شبكه ـ دراسة عامة ـ .

١٢ — في هيكل اللبنانية .

١٣ — شلالات الملائكة (شعر)

١٤ — القمم البيضاء (شعر)

١٥ — اناشيد الاستقلال (شعر)

هاتف الناشر : ٢٣٠٥٦١
هاتف المؤلف : ٢٢١٠٤٩

مطبعة الغريّب ـ بيروت ـ هاتف ٢٤٦١٨٥